

مطبعة « مجلتي »

تم طبع كتاب « في السودان »
بمطبعة مجلتي (لصاحبها احمد الصاوي محمد)
بشارع الداخلية بالقاهرة تليفون ٥٥٤٥٥
في يوم السبت ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦

الى

الاستاذ الدكتور محجوب ثابت

بعض ما تستحق . . .

ع٠ا

فهرس الكتاب

	صفحة
الاهداء	ج
الفهرس	د
«	ه
المراجع	و
المقدمة	ز
قدسية النيل	١
السودان القديم	٨
السودان الاسلامى ...	١٨
ممالك السودان الاسلامية ...	٢٤
سلطنة الفور	٣٢
فتح السودان	٣٩
أقاليم خط الاستواء ...	٥٣
أوروبا واستعمار افريقية ...	٦٣
المستكشفون واستعمار السودان	٧١
الأنجليز والسودان ...	٧٧

	صفحة
نهضة السودان وثورة المهدى	٩١
اخلاء السودان	١١٣
فتح السودان واتفاقية ١٨٩٩	١٢١
المسألة السودانية	١٣٦
المفاوض المصرى والسودان	١٤٠
١٩٢٤	١٤٧
خاتمة	١٥٧
من هنا وهناك	١٦١
الذكرى الجميلة	١٦٣
السودانيون فى أخلاقهم عامة	١٦٧
علاقات الأسرة	١٧١
جمال الرجل وجمال المرأة	١٧٤
أخلاق عرب السودان ...	١٧٦
تاجوج ومحلق	١٨١
ألفاظهم	١٩١

فهرس الكتاب

صفحة		صفحة	
أمثالهم	١٩٢	سلامهم	٢١٨
أحاجيهم وألغازهم... ...	١٩٦	شعرهم	٢٢٠
بعض أغانيهم	١٩٧	مساكنهم	٢٢٣
أبطالهم	١٩٨	أثاثاتهم	٢٢٧
على محمد البنا	١٩٩	طعامهم	٢٣٢
على عبد اللطيف	٢٠٢	شرابهم	٢٣٤
أفراحهم	٢٠٥	حيوانهم	٢٣٧
أحزانهم	٢١١	مدنهم	٢٤١
طبهم	٢١٣	خاتمة فى كلمات	٢٤٤
مجالسهم	٢١٥		

القاهرة

دار مجلتى للطبع والنشر

مراجع الكتاب

(١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته لنعوم شقير باشا

(٢) أمثال العوام فى مصر والسودان والشام » » »

(٣) تقويم البلدان للكندى

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى

(٥) السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية لداود بركات بك

(٦) عشرة أيام فى السودان للدكتور حسين هيكل بك

(٧) من محاضرات فى كلية الآداب بالجامعة المصرية للأستاذ شفيق غربال

(٨) الفاطميون فى مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن

(٩) كتاب السودان للأستاذ عبد الله حسين

(١٠) مصر والسودان فى نظر العلم والتاريخ للدكتور احمد فؤاد

(١١) مذكرات خاصة عن السودان للواء محمد لبيب الشاهد باشا

(١٢) » » » للأميرالاى محمد رفعت بك

✲ ✲ ✲

1) The Egyptian Soudan by Alford and Sword

2) Winning of the Soudan by Crabices

3) Anglo Egyptian Soudan by Mac Michael

4) A History of the Arabs in the Soudan by Mac Michael

5) Situation Internationale de L'Egypte et du Sudan par Jules Cocheri

مقـــدمة

غايتى من هذا الكتاب وأملى فيه أن يعرض عليك الحق فى أمر بلادك ، ولا أزعم أنى وفقت كل التوفيق ، بل أستطيع أن أقول فى غير التواء أننى حاولت أن أقدم للمصريين كتاباً صغيراً يعرفهم على تاريخ سودانهم والسياسة التى لعبت دورها هناك ، ويعرض كثيراً من أخلاق مواطنيه على حقيقتها فى غير تزويق أو تسوىء

فأذا لم يكن فى هذا الكتاب خير فأقل ما يقال إنه كتاب قديم حديث ، من فجر الفراعنة إلى أيام فاروق ، فى أسلوب متواضع ، وتحليل معتدل ، أرجو أن يكون فاتحة ، وتذكرة لأدبائنا وعلمائنا ، فهم أصبر على الجهد ، وأصدق فى البحث ، وأجدر منى بالرواية عن السودان والتأليف فيه.



قدسية النيـــل

كلما تذكرت طفولتى عدت بالذكرى الى النيل ، حيث الخرطوم الفاتنة فى بساطتها الساحرة فى جمالها المطبوع ، ولولا ذكريات الخرطوم لعرفت النيل كما عرفته سيداتنا حين يصحبنه فى قارب أو على شاطئيـــه ، وقلما يدور بخلدهن شىء عن قدسيته ، فأنهن يعجبن بالنيل وانسياب مائه فى رفق ولين ، لأن فيهن صفات من صفاته ، فيه الدعة وهى من طبائعهن ، وفيه الزهو وهى صفة تغلب عليهن ، وفيه الجمال الذى يعسر على الكاتب أن يصفه أو يرسمه ، ويعز على بيانه أخراجه فى صورته الصريحة الصادقة ، كما فيه سحر لعل منه سحرهن !

فاذا كان النيل عظيما فى عرف السيدات على هـذا النحو وفى هذا الأسلوب ، فأن حياتنا اليوم بما فيها من قيد يصاحب النيل من منبعه الى مصبه تفرض علينا جديداً فى تقديره وتقديسه ، لعله جديد عرفه قدماؤنا حين سموا

به عن صحبته فى نزهة فارغة ، ووضعوه من أنفسهم موضع التأليه والاكبار .

لقد كنت أسكن إلى شاطىء النيل فى طفولتى مع بعض الصحاب ، وكانت حافته المشرفة على سراى الحاكم العام فى الخرطوم تستقبلنا إذا استيقظ الصبح أو أدبر النهار ، ونحن فى طريقنا إلى المدرسة وفى عودتنا منها ، وكنا إذا فرغنا من أثقال الدرس عدنا إلى بيوتنا ونحن نلعب عند حافته كرة من الجلد أو كرة من الحجر ! حتى إذا تعبت أجسامنا واتسخت ثيابنا خلعنا نعالنا وألقينا أقدامنا فى مائه ، ولم نكن نعلم بعد أن ماءه أقدم ماء جرى على الأرض ، ولا كنا نعلم أين ينبع ، وأين يصب ، ولم نكن نعرف أنه خلق أمة وجمع جنسا ، وسوّى فى الشكل والموضوع جماعة من الناس .

ولكننا أحسسنا إحساساً عميقاً لا ندرى كنهه أن هذا الماء بعينه هو الذى يجرى فى القاهرة ، وأن هذه الوجوه التى نراها هى صدى للقاهريين مهما اختلف اللون واضطربت اللهجات ، ولم نشعر قط أننا فى غربة أو فى حياة لا يحياها المصريون ، وكأنى أرتد قليلا قليلاً إلى الاحساس القديم

فيخيل إلىّ أننى كنت فى ريف مصرى قريب الشبه بحياة المدن ، أو فى مدينة مصرية أدنى فى الرسم إلى القاهرة .

كان النيل قبل كل شىء يردنا إلى هذا الاحساس ، لا يدعونا إليه علم من العلوم ولا حديث من الأحاديث ، ولا توجيه من التوجيهات التى يلفت بها الكبار صغارهم فى بسائط العلوم وتوافه الأمور ؛ كان النيل وحده وقبل كل شىء يدفعنا إلى تقدير وحدته ، واعتبار قدسيته ، فلا عجب إن رضيت اليوم عن ماضيه ، ووضعت الرجاء فى مستقبله .

لقد أحب النيلَ أهله من منبعه إلى مصبه فعبدوه وجعلوا له آلهة وشادوا له المعابد ، وراحوا يفرحون به ، ويرقصون لمقدمه ويقيمون الولائم تحية له وتبركا .

وكان فرعون وكهنته وشعبه وعبيده يقدسون النيل ، فيحزنون إن أقبل متراخياً متثاقلا . لايحمل الطمى الغليظ والماء الكثير ، وكنت تراهم فى بيوتهم حزانى ، وفى معابدهم ركوعاً داعين أربابهم ، ملحين فى خشوعهم ودعائهم ، وكانت أرضهم تبكى مثلهم ، فقد أقفرت من الثمر وخلت من القمح والشعير ! ولم تعد كرومهم ناضرة ،

ولا أشجارهم مثمرة ، وأصبحت حياتهم هباء ، وكأن السماء ساخطة فهم لا يتنفسون هواء نقياً ، ولا يستنشقون عبيراً ذكياً ، لا يستشعرون فى الأرض نعمة . ويشاهدون فى السماء نقمة ... لم تعد فى الدنيا أفراح فقد ازدحمت بيوتهم بالنواح ، وشقت عليهم الحياة ، فمنهم من ينتحر ، ومنهم من يهب نفسه وماله لأله النيل ، وفرعونهم يهرع الى المعابد يقدم القرابين ، ويطلق كهنته البخور لعل السيد يلين ويفيض ماؤه ، وتعود الشمس الى زهوها ؛ والأرض الى زهرها ، والبيوت إلى أفراحها .

وكانوا إذا أقبل فيضه عميماً أزهرت الأرض ، وعلت الشفاه ابتسامة حلوة لا تختفى أبداً ، وامتلأت المعابد بآيات الشكر تتردد فى الصباح والمساء ، وقدمت القرابين للمعبود العظيم ، وخرج فرعون وخدنته فى موكب جامع حافل يوزعون الخير هنا وهناك فان رب الخير أقبل بالخير ، ومعبود الجميع أرضى الجميع ، فهاهى ذى الكروم قد أنضجت وأثمرت فلا بأس من نشوة الخمر ...

هاهى ذى الأرض قد اخضرت وأزهرت فليرقص الراقصون ولينشد المنشدون ، وليحىَ الشعب حياته السعيدة

المترفة ، وليذكر أهل النيل فضل النيل فقد رد خوفهم أمنا ، وحياتهم صفواً . . . أليس هو الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ؟ أليس هو الذى رسم لهم حياة الهـــدوء والاستقرار ؟ أليس هو الذى خلق منهم قوة ووحدة وحكومة وقانوناً ؟ أليس هو الذى ملأهم تيهاً ونخراً ودفعهم الى الشرق والغرب يعلنون رســـالتهم فى كبرياء وزهو ؟ أليس هو الذى علمهم الصبر وشغل قلوبهم بالحب وملأ نفوسهم بالخير ؟ أليس هو الذى جرت عليه أفلاكهم تحمل أرزاقهم وأقواتهم وجيوشهم ومدنيتهم ؟

لقد عرف أهل النيل فضل النيل عليهم فبروا به وقدسوا وحدته ، وذكروه من منبعه إلى مصبه ، ومضوا فى تقديسهم له جيلاً بعـــد جيل ، فكانوا يلقون فيه كل عام أجمل فتياتهم قرباناً وتضحية ، كانت تخرج اليه فى قسامتها الساحرة وثيابها الفاخرة ، فى خطر المها وخفر العروس ، لا يساورها شك فى الموت ، ولا يساورها شك فى الحياة أيضا ، فان ما يحي شعباً لا يميت فردا ! فهى إذن فى ذمة الخلود جمالها وكمالها ، خفرها ودلالها ،

يفتر ثغرها عن ابتسامة الهادىء المطمئن ويودعها أهلها وداع السعيد الظافر ، فان ابنتهم قد نالت خيراً وخلداً وهم بلغوا من ورائها زهواً وفخراً

يعنيك بعد هذا أن تعلم ، وتثق فى هذا العلم الذى أحاول أن أجعله علماً بأن حديثى معك ليس تاريخاً وإن سرقته لك من التاريخ ، وليس أدباً وإن صغته لك فى أسلوب الأديب ، ولكنه حديث يعنى بالواقع لا بتاريخ الكتب والباحثين ، يعنيك أن تعلم أن أمة النيل ليست سكان مصر والسودان وحدهم ، بل هم سكان هذا المجرى القديم الفتى الذى لا يمرض ولا يتعثر ، وأن سكانه جماعة واحدة ينبغى أن تعيش فى ظل تاريخها ودينها وتقاليدها الواحدة يرفرف عليها علم واحد هو علم النيل ، فاذا لم يكن من مجاراة السياسة وأساليبها فأن أقل ما يجب أن نعلمه ونذكره هو هذا السهل المنبسط الذى يضم فى عطفيه مصر والسودان ، فأن الجامعة بينهما صادقة الحس والمعنى ، عرفها القدامى فاعتبروا الأرض السوداء مصر والسودان ، كما ذكرت التوراة هذه الوحدة تأكيداً للواقع الملموس ؛ هم شعب واحد فى جنسهم منذ أبدع

الله الأرض ومن عليها ، ومنذ عرفوا المدنية الأولى وعبدوا الآلهة المتباينة فى وثنيتهم القديمة ، فقد كان إله النيل (رع) يتمتع بمقام جليل فى السودان ، وكانت آلهة الجنوب كأوزوريس بقسمات وجهه الفاتنة وبشرته السوداء ينعم بالتقدير والاعتبار فى الشمال ! ولمّا عرف الشمال المسيحية الكريمة عرفها الجنوب بدوره تلبية للروح الذى يملى الوحدة والمزاج ، فاذا ما انتهوا اليوم إلى الأسلام دين الحق القويم أصبحت المدنية الاسلامية رمز حياتهم الاجتماعية والأدبية ، وأصبحت الروابط الاقتصادية التى صاحبت تاريخ السودانيين والمصريين عاملا قوياً حياً يوجب وحدتهم فى ظل علم واحد ما بقى الكون وبقى فى الكون إنسان .

ونحن نرد هذا كله إلى النيل ، فلا ينبغى أن نغفل فى حياتنا قدسيته وجلاله فأن من ينسى أصل نعمته قد كفر بوجوده ، ومن يكفر بوجوده لا يستحق نسمة الهواء ولا جرعة الماء ولا حياة الأحرار . . .

السودان القديم

ليس فى العالم شعب متفق المزاج كمصر والسودان ، وليس فى العالم شعب بتره الاستعمار الحديث كأسرة النيل ، فنحن اليوم مفروض علينا أن نكون شعبين — مصر والسودان — ولو أننا رجعنا بالسودان القديم ، وذكرنا طرفاً عن مملكة أيثيوبيا (١) ؛ وبدأنا بهذه المملكة كالعهد الأول للسودان لعرفنا كيف نشأت مصر والسودان قطعة واحدة لا اختلاف بينهما فى أساليب الحكم وفهم الحياة .

بيد أنك ستقرأ طرفاً من الحروب التى قامت بين الشمال والجنوب ، وأنا أعلم كراهية الناس لذكر الحروب والسنوات التى قامت فيها ، لذلك رغبت عن ذكر كل الحروب واقتصرت فيها على ما يهمنا ويصل حبال

(١) هذا لفظ أطلقه اليونان على كل بلاد يسكنها السود وعميقو السمرة وتعرف باسم كوش عند قدماء المصريين

الماضى بعضه بعضاً ، دون أن يضطرب ذكر الحوادث وتسلسل الأخبار .

على أن فى ذكر حوادث الحروب سقطة فى جبين وحدة النيل ! هكذا يرى بعض مؤرخى الفرنجة من الذين يهمهم تسوىء هذه الوحدة ، ويستدلون من حروب الماضى على استحالة الوحدة فى تاريخنا الحديث ، ولكننى أحب أن أذكر لك من تاريخ أوروبا نفسها ما يهدم رأى الفرنجة فى هذه الناحية ، فأؤكد أن هذه الحروب القديمة كانت واجباً تمليه العواطف الوطنية والمصلحة المتبادلة ، ولنا فى ذلك نظائر ، ففرنسا فى تاريخها الأول كانت مقاطعات متنافرة غير منسجمة حتى سخر الله لها قوماً عرفوا ضرورة الوحدة التى تمليها العواطف الوطنية والمصلحة العامة ، فظهر ريشيليو وغير ريشيليو ، يعملون لهذه الوحدة بالسياسة والدهاء مرة ، وبالحديد والنار مرة أخرى ، حتى تمت لفرنسا وحدتها ، وأصبحت اليوم شعباً كفيلا بالحياة .

وكذلك كانت ألمانيا وإيطاليا ؛ عمل بسمارك على توحيد ألمانيا ، وكان رجل بروسيا وهى إحدى

المقاطعات الألمانية يتوق إلى هذه الوحدة ، وينشد فيها أمن البلاد وسلامتها ، فسعى حتى وفق إلى ما يريد ، وأصبحت ألمانيا منذ سبعين عاماً أمة لها خطرها فى أوروبا وجلالها فى الحياة العامة فى العالم جميعا ؛ كذلك خطت إيطاليا هذه الخطوة الموفقة فى أيام ملك بيدمنت ، أعظم حكام مقاطعات إيطاليا المفككة ، وقد شمل بعطفه رجال الوحدة الايطالية كمازينى وغريبالدى وكافور ، وبعون هؤلاء الثلاثة انتقلت إيطاليا من التعبير الجغرافى إلى الوحدة السياسية الموفقة ، والامبراطورية العظيمة الشأن ، الجليلة الخطر التى أكمل لها سلطانها السنيور موسولينى عظيم الايطاليين ورجل الامبراطورية من غير منازع

كان من سخرية التاريخ أن تعيش فرنسا وايطاليا وألمانيا تعبيراً جغرافياً ، لا وحدة فيها بالرغم من الاحساس واللغة والعادات والتقاليد ، كذلك كان من العبث — ولا يزال العبث حياً — أن يعيش شعب النيل مفككا بالرغم من الاحساس واللغة والعادات والتقاليد المتفقة أكثر مما نراها فى ألمانيا مثلا ، فالمصريون

والسودانيون لغتهم واحدة ودينهم واحد بينما لغة أهل الشمال فى ألمانيا أو بلجيكا غيرها فى أهل الجنوب ، ودينهم مختلف المذاهب وناسهم يتكلفون لهذا الاختلاف كثيراً من الضيق والارهاق ؛ وبعض دول أوروبا الموحدة تنقسم فى لغاتها وأديانها بل فى أجناسها أيضاً كسويسرا ولكنها مع ذلك أمة يضمن سلامتها الجميع ! لذلك كان من العبث المر أن يقال هناك مصر وهناك سودان ؛ وأن يبقى الاستعمار عقبة فى طريق هذه الوحدة التى أرادها الله لشعب النيل .

على أن فى ذكر تاريخ السودان القديم واجباً علينا نحو النشء وإن كنت لا أميل الى الأطالة فيه مغبة أن يثقل بك الحديث فتنصرف عن القراءة ، وليست غاية الكتاب أن يصرفك عن رجائنا فى نشره ! ولعل فى ذكر شىء يسير عن « نوات ميامون » بعض العزاء فيما يثقل عليك ذكره ، هذا الملك العظيم القدر ، العزيز الجانب ، قام ملكه فى نباتا عاصمة أيثيوبيا ، وبسط سلطانه من العطبرة الى حدود مصر ، وكان هذا الملك طيب السيرة ، لا يميل الى الحروب وسفك الدماء ، وكان يحمل فى نفسه

إعجاباً عميقاً بمصر وعزها ومجدها التالد ، وكانت مصر فى عهده قد بدأت تهوى عن مكانها المعروف فى العالم القديم ، وماوافت الأسرة السادسة والعشرون حتى جاء فى أعقابها بؤس مصر وشقاؤها ، فتطلع اليها أهل آشور ، ووقف لهم أهل أيثيوبيا بالمرصاد ، ولكن الأمر انتهى باحتلال الآشوريين لمصر ، ومضوا فى احتلالهم لها فترة من الزمان ساءت فيها سيرتهم ، وتعاقب حكامها فى ظلمهم ، وتباروا فى الجور والعدوان ، وأراد الله أن تدول دولتهم فختموا غزوهم بانهيار سلطانهم على أيدى نفر منهم تنازعوا البقاء الرخيص .

خلا الجو لأيثيوبيا ، ومصر لاتزال فى ضعفها غير قادرة على عدوان غيرها ، إلا أن « نوات ميامون » أحس فى اقتناص الفرصة وغزو مصر جريمة يرتكبها إن هو أقدم عليها ، وقد جرى الأيثيوبيون على وضع مصر من أنفسهم موضع التقدير والاعتبار ، يأخذون عنها حياتهم وجهادهم وفهمهم للحياة . وكان أهل مصر وكهنتها لايرون فى أيثيوبيا بلداً غريباً عنهم ، فهم يعرفونها ويعرفون عاصمتها نباتا ، فيها مبانيهم وآثارهم ، ومعالم حضارتهم ، وقد علموا

أهلها فاحسنوا تعليمهم حتى استطاع حاكمهم أن يقلد حاكم مصر ويقيم لنفسه ملكا مثله .

وانحطت نباتا وعبث الزمان بملوكها كما انحطت طيبه وعبث الزمان بملوكها، وقام قبيل ذلك الوقت ملك له قدره يقال له أبسمتيك أسس أسرة مصرية عظيمة ذات خطر وكان هذا الملك معاصراً لليونان فوفدوا إلى مصر زرافات ووحدانا وأكرم وفادتهم ، وجعل كثيراً منهم فى جنوده وحاشيته ، فأغضب ذلك الجندَ المصريين ، وكبر عليهم أن يكونوا ذيلا لهؤلاء الدخلاء وهم الأصل والدعامة ، وكان الملك قد وضع الجند المصريين عند الحدود فى الشرق والغرب والجنوب ، فعز عليهم هوانهم ، وآثروا الارتحال عن مصر وتوجهوا إلى النوبة حيث استقبلهم ملكها وأقامهم حيث يستحقون من جيشه وأهل مملكته وكان ملك النوبة يشكو جيرانه فى الجنوب ، أولئك الذين أثقلوا عليه وناجزوه كثيراً وعكروا صفو حياته فوجه اليهم جنود مصر ، فقطعوا دابرهم وسحقوهم وأراحوه منهم فزادفرحه وإعجابه بهم وأكرمهم فاستقروا فى بلاده ، ونشروا فى ربوعها حضارة مصر وعلومها

وفنونها . فنهضت مملكته فى دولتها المروبة المعروفة ، واستقام أمرها بعد عوج ، وأصبحت فى عداد الدول التى يذكرها التاريخ القديم بالاجلال والاكبار

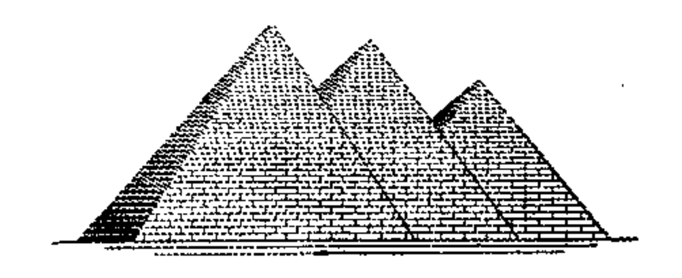
ثم كان أن غزا قمبيز مصر وانتهى إلى جنوبها ، وطمعت نفسه فى بلاد أيثيوبيا فأرسل إلى ملكها وفداً يحمل الهدايا الكثيرة ، وكان يرجو من وراء هذا أن يتعرف على أخبارها حتى يعد لها العدة ، وكان قد سمع أن أهلها أهل حرب ، وأن ملكها شجاع مقطوع النظير ، خطير الشأن ، كثير الجند ، فاذا أقبل الرسل قدموا إلى ملك الأيثيوبيين هداياهم ، وفيها ثوب أرجوانى وأساور من ذهب ، وكانوا يأملون أن يفرح بها هذا الزنجى الأسود ! فرأوا من أمره عجباً ، ذلك أنه أدرك غرض قمبيز فقال لوفده « إن قمبيز قد طمع فى بلادى فأرسلكم لتتجسسوا أخبارى فهو ليس بعادل ؛ ولو عدل لما طمع فى غير بلاده ، ولا حاول استعباد أمة لم تسىء اليه فى شىء » ثم تناول قوساً كبيرة ووترها ثم قال « خذوا هذه القوس إلى ملككم وقولوا له إن ملك الايثيوبيين ينصح ملك الفرس بأن يعدل عن رأيه حتى يصير الفرس قادرين على وتر قوس هذا حجمها بهذه السهولة »

هناك عاد الرسل إلى ملكهم قمبيز ، وحذروه مغبة هذه الحرب التى يريد أن يدفع بلاده إليها ، بيد أنه أحس فى كلام ملك الأيثيوبيين إهانة لا يغسلها إلا الدم؛ فسير الحملة اليه فكانت شراً عليه مما قدر رسله وكهنته جميعاً . لم يقدر الملك طول صحراء النوبة ولا جفافها ، ولا انعدام الخير فى قفارها فألقى بجنوده فيها إلقاء ، ثم بعث طائفة منهم ليخربوا معبد آمون فى سيوه فذهبوا ولم يعد منهم أحد ، ولم يسمع لهم خبر كأن الأرض انشقت فابتلعتهم ، أو ثارت بهم عاصفة من الرمال فدفنتهم ، فنالت هذه الكارثة من نفس قمبيز وأصابه من هولها غم شديد ، ثم مضى بجيشه فى هذه الصحراء الحزون بضعة أيام حتى نفد القوت ولمّا يقطع خمسها بعد ، ومع أنه قد أغز السير فأن حياته فى الصحراء اضطربت واشتد الجوع بجنده فأكلوا الحيوانات والعشب ، ثم نفدت حيواناتهم وجيادهم ، فاقترعوا على بعضهم فمن سقط فى اقتراعهم أكلوه ، فلم يجد قمبيز بداً من العودة فعاد محزوناً ، مفطور القلب ، مشغول الخاطر ، عودة حزينة كسيرة كعودة نابليون من

الروسيا ، فكانت هذه الحملة أساساً لانهيار ملكه فأصابه الخبل ، وكادت تودى هذه الكارثة بعقله وخاصة بعد شماتة المصريين به ، فصب غضبه عليهم وقتل أبيس وخرب معابدهم ثم انطلق إلى بلاده ، وكانت هزيمة الصحراء قد أثرت فى كبده ففطرته فمات فى الطريق .

ثم أقبلت النصرانية على مصر فدخل فيها المصريون ، واعتنقهاأهلها على يد مرقص الرسول ، وتردد صدى هذا الدين الجديد فى السودان ، شأن الأمة الواحدة التى لافارق بين أحاسيسها وعواطفها ، فانحدرت النصرانية الى السودان واعتنقها أهل النوبة . وقامت الخلافات بين الأقباط فى مصر فهاجرت الطائفة المغلوبة الى أرض النوبة كما هاجر من قبل جند أبسمتيك المصريون حين هوّن من أمرهم وجود اليونان فى جيش الملك ، وكان بين المهاجرين النصرانيين الكهنة والقسس ، فنشروا النصرانية فى شمال السودان ، كما أقبلت النصرانية فى جنوبه على يد الأحباش فانتشر أمرها وقوى سلطانها حتىأصبحت النوبة معقلا خطيراً وملجأ يلجأ اليهالقسس والرهبان والمضطهدون فى دينهم .

لقد رأيت مما مر بك أن السودان شديد التأثر بمصر فى عواطفها وشعورها ، كانت مصر وثنية فقلدها الجنوب فى وثنيتها ؛ وجعل له آلهة على غرار آلهة المصريين ، بل جعل له من آلهة مصر ملجأ يلجأ إليه حين تلم به الخطوب ، وبلغ من كمال وثنيتهم أن اعترف المصريون بآلهتهم ، كذلك كان للمدنية المصرية أثرها الظاهر فى مدنية الجنوب ، سواء استقل بنفسه أو اتصل بمصر : ثم أقبلت النصرانية على مصر وانتقلت الى الجنوب على يد القسس والرهبان المصريين ؛ وتلقاها السودان فى يسر ؛ وسينتهى اليك فى الفصول المقبلة ما يؤكد لك أن العواطف بين الشعبين عواطف أمة واحدة ؛ ولعل انتقال فرد من دين الى دين شخص ما ، غاية مما يمكن إظهاره من علائم الحب والتقدير والوفاء ؛ والسودان فى غاياته مرتبط بمصر فى دينها وتقاليدها وعاداتها ارتباطاً لا يتفكك ولا يتجزأ



السودان الاسلامى

كتب إغريق فى جغرافية النيل قبل ميلاد المسيح بمائة سنة فزعم أنه ينبع من ثلاث بحيرات فى شمال خط الاستواء . وخالفه فى ذلك بطليموس المشهور فذهب إلى أن منابع النيل جنوب خط الاستواء لا شماله ، أما هومير فأبدع وأجاد وكفى نفسه شر القتال ، وهرب من بحوث العلماء وزعم أن النيل سيل نازل من السماء !

هذا ما قاله القدماء عن جغرافية النيل ، أما العرب فكانت عنايتهم بالسودان أوسع وأعمق ، فقد أكثروا من الكلام على جنوب مصر ، ونحا مؤرخوهم نحواً خاصاً فى الحديث عن بلادنا الجنوبية (السودان) حتى لتجد المقريزى يتحدث عنه حديثاً طويلا مسهباً ، وقد اعتبروه من بلاد مصر فاستقصوا أخباره على الرغم من أنه كان خارجاً عن الجامعة العربية المعروفة فى ذلك الزمان ، بيد أن الحديث عن مصر فى عهد العرب هو حديث عن

السودان أيضاً ؛ وقد عنى الجغرافيون من العرب بالسودان عناية مؤرخيهم به ، فذكر الكندى فى « تقويم البلدان » فى وصفه ورسمه لخرائطه شيئاً غير يسير عن النيل فقرب من الحقيقة حين زعم أن منابعه فى جبال القمر فى جنوب خط الاستواء ، وقال إن مياه النيل تجرى فى ينابيع من تلك الجبال إلى بحيرتين واسعتين تصبان فى بحيرة ثالثة منها ينبع النيل ؛ وهذا كلام يقرب من الحقيقة إلى حد بعيد .

لم يدخل السودان كله فى المجموعة العربية وإنما دخل شماله فحسب ، ذلك أن موجة الاسلام امتدت من مصر حتى عمت النوبة واتجهت عن طريق الدعاية إلى أن بلغت النيل الأعلى ؛ وليس معنى هذا أن شمال السودان هو وحده الذى تأثر بالاسلام ، بل إن الواقع يؤكد أن الدين القويم أخذ طريقه من مصر إلى أقصى الجنوب فى السودان ، ولكن تأثر الشمال كان أبعد وأعمق من أقاصى الجنوب .

وقد ذكر المقريزى والبلاذرى فى فتوح البلدان طرفاً من تاريخ السودان وعلاقات مصر به منذ فتح

النوبة عمرو بن العاص وأعقبه ابن أبى السرح حتى دنقلة (١) ، وإنك لتحس فى تضاعيف كلام مؤرخى العرب إلتماسهم الوحدة لوادى النيل فى علاقاته السياسية والاجتماعية والدينية ، ولكن الثقاة من مؤرخيهم وغيرهم من الفرنجة يؤكدون كذلك العلاقات السياسية بين مصر والسودان فى تلك الأيام ، وهى علاقات قامت فى أغلب الأحيان على الفتح والغزو ، ولكنهم يذكرون أن السودانيين لم يعتنقوا الاسلام جميعاً ولم يتخذوا هذا الدين عقيدة لهم ، بل اقتصر أمر الاسلام على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد السودان .

ثم كان أن انصرف أهل مصر عن بلاد العرب ، واستقلوا بأنفسهم من أيام الفاطميين وقفّى على آثارهم فى الاستقلال بمصر الأيوبيون والمماليك، ولم يكن بد لهؤلاء الحكام المستقلين من وصل السودان بمصر جرياً على عادة السابقين من حكامها سواء قام هذا الوصل على حد السيف أو بطريق التفاهم والسلام ، فالتفتت هذه الدول

---

(١) ويسميها العرب دمقله جاء فى وصف الحرب بين العرب وأهل النوبة

لم ترد عينى مثل يوم دمقله   والخيل تعدو بالدروع مثقلة

المتعاقبة إلى هذا الشطر الثانى من بلاد مصر فوجهوا عنايتهم إلى فتحه بجنودهم أو بدعايتهم واستمرت فتوحاتهم بلا انقطاع طوال أيام الفاطميين ، وقد اهتم الفاطميون (١) بفتح السودان خاصة لأسباب تتصل بكيانهم فهم كما نعلم فى نظر المسلمين السنيين مغتصبون للخلافة ، وهم فى نظر أنفسهم أصحاب حق لأنهم انحدروا عن فاطمة بنت النبى وزوج على فهم أولى الناس بالخلافة ، لذلك تعتبر ثورتهم وانتقال الخلافة إليهم حدثاً جديداً فى الاسلام ، وهذا الحدث يتطلب من القائمين به الذود عنه بشتى الأساليب ومختلف الطرق ، لذلك عمد الفاطميون إلى إغراء الشعراء والكتاب للوقوف بجانبهم وشد أزرهم ، وعمدوا إلى الشعب يغرونه مرة باللين ويعالجونه مرة بالعنف والشدة ، وقد ترتب على نشر هذا المذهب الجديد أن عنى أصحابه بأمر البلاد القريبة من مصر والمحيطة بها ، فنشروا دعوتهم فى الشام وبلاد العرب وشمال أفريقية وغيرها ثم وجدوا أن أولى البلاد بنشر دعايتهم فيها ما كان قريباً

---

(١) «الفاطميون فى مصر» للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن

من مصر ، ومعتبراً فى نظر العلم والتاريخ جزءاً متمما للبلاد المصرية ، فقصدوا إلى السودان بدعايتهم ينشرون فيه دعوتهم وأساليبهم فى الحكم وأخذ الحياة ، ولم تقف غزواتهم فيه لأن أهل السنة فى مصر ممن عظم عليهم سلطان الفاطميين وشق عليهم حكمهم هاجروا إلى بلاد النوبة واستوطن بعضهم فيها ، فكانوا أشبه بالمهاجرين الانجليز الذين أنشأوا أمريكا الحديثة ،

ثم جاء حكم الأيوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين ، وكان صلاح الدين يوجس خيفة من سيده ومولاه نور الدين ، وكان يرغب رغبة شديدة فى الاستقلال بمصر ، وكان يرجو أن يكون له حصن آخر يلجأ إليه هارباً أو معانداً لو انكشف أمره وعرف بخبيئة نفسه نور الدين ، ففكر فى اليمن حصناً يهرب إليه وقت الحاجة ثم عدل عن ذلك لبعد الشقة بين مصر واليمن ، ولصعوبة تهيئة الجوله هناك ، ثم اهتدى فى آخر الأمر إلى بلاد النوبة فأرسل إليها أخاه شمس الدين توران شاه بن أيوب ٥٦٨ هـ فهزم أهلها وامتلك بعض قلاعها ، وعسكرت فيها جنوده ،

حتى إذا مات نور الدين ولم يعد أمام صلاح الدين هـذا السيد الخطير الذى كان يمهدلنفسه حصناً ليهرب منه وقت الحاجة ، عاد فسحب الجنود المصرية من بلاد النوبة

وهكذا مضى المماليك على غرار من سبقهم فسيروا الحملات لغزو السودان ، وفرضوا عليـــه الضرائب ، وجعلوا على النصارى ضرائب أخرى مما كان داعياً إلى إسلام كثير منهم ؛ ثم كانت أيام المنصور قلاوون وهو من أعظم المحاربين الذين ظهروا فى العالم الاسلامى ، فوجه إلى النوبة جنداً عظيما من قبائل أولاد أبى بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وغيرهم إلى دنقلة وغيرها من بلاد السودان .



ممالك السودان الاسلامية

عرفنا ما كان من هجرة العرب والمصريين إلى بلاد النوبة ، ونشرهم الاسلام فيها ، وعرفنا أن شمال السودان انتقل بهذا التطور البطيء إلى الجامعة الاسلامية وأصبح جزءاً منها يعنى به المؤرخون من المسلمين كالمقريزى وابن عبد الحكم وابن خلدون والكندى ومن إلى هؤلاء من أئمة المؤرخين ؛ ورأينا كيف بدأ فقهاء المسلمين يهاجرون إلى هذه البلاد ويعلمون أهلها الدين واللغة حتى استقرت الحضارة فى هذه البلاد وعظمت الصلة بينها وبين بلاد العرب ، وقامت « عيذاب » على ساحل السودان وقوى أمرها حتى قال المقريزى فيها « وكانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع ، وتقلع منها مراكب الحجاج الصادرة والواردة » وذلك لأنهـا كانت تقابل جده فيبحر منها الناس عرض البحر الأحمر فى يوم واحد ؛ وعرفنا

كذلك أن النصرانية انحدرت من النوبة إلى الجنوب واستقرت هناك نحو ألف سنة أخرى .

ويجدر بنا الآن أن نتقصى أخبار دولة قمينة بالتقدير قامت بالسودان وشغلته بنشاطها وكان لها فيه شأن عظيم، ذلك أنها استمرت قائمة حتى أدركها العصر الحديث فقابلت الفاتحين من مصر وأوروبا وانتهت بذلك حياتها ، ومعنى هذا أن السودان لم يكن خاملا فى العصور الوسطى كما يخيل إلينا بل كان حاله كحال مصر فى تلك السنين ، كان دائم التجدد دائم النشاط ، قامت فيه دول عربية أصلا وسودانية طبيعة وتأسيساً ، وعملت فى جد لنشر العربية والاسلام وإدخال السودان حتى السوباط فى المجموعة العربية الاسلامية ، فكان اذن حظ السودان فى نشر الاسلام ومدنية العرب أعظم من حظ مصر فى هذا المضمار ، ذلك أن أهلها كانوا يقاسون الأمرين من ظلم المماليك العتاة وإدارة الاتراك المضطربة ، وكان السودان قد كتب له ألا يدخل فى حظيرة الاتراك ولا يخضع لسلطانهم فظلت معالم الانسانية والخير قائمة فيه فى حين انتفت هذه المعالم الطيبة فى جميع البلاد التى كتب لها أن تدين للأتراك

وقد رغب السلطان سليم فى فتح سنار فلم يوفق أو قل إنه انصرف عن هذا المجهود الشاق فرجع عنها بعد أن كان له مع ملكها حديث مشهور . وأدركت مملكة سنار أنها وقد خلصت من حكومة الأتراك ينبغى أن تتصل بالعالم الاسلامى رأساً من غير وساطة العثمانيين ، فاتصلت بجدة ومكة والمدينة فوفدعليها العلماء والمتدينون والعرب من كل صقع وانتشروا فى بلادها ، والعربى السليم العنصر صحيح الايمان شديد التمسك بالأخلاق القويمة ، حريص جد الحرص على الدين ، شجاع فى حربه وسلمه ، يميل إلى التضحية والحرية والبساطة والايثار ، فأثرت هذه الصفات العظيمة فى إقامة ملك سنار ورفع مناره وعظمة ملوكه الذين يعرفون بملوك الفونج .

يختلف الناس فى أصل « السناريين » ، فيذهب الشيخ عبد الدافع صاحب تاريخ الفونج إلى أنهم أخلاط من السودانيين نتجوا من تزاوج قبيلة سودانية كبيرة مع قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمه ، ويتفق الكثيرون على أنهم فروا من عسف العباسيين إلى هـــذه البلاد وأقاموا فيها هذا الصرح العظيم ، ولعل الشيخ عبد الدافع

أقرب إلى الحقيقة فى تخريجه لأصل السناريين من هـذه الأسطورة التى لاتجد فى تاريخ الواقع الملموس ما ينهض دليلا على صحتها .

قام مُلك الفونج فى سنار، وكانوا مسلمين يميلون إلى الاستعراب ، فاتخذوا لغة العرب وأسماءهم ، واستمرت دولتهم عزيزة الجانب ثلاثة قرون تقريباً من ١٥٠٥ إلى ١٨٢١ م ملك فيها سبع وعشرون سلطاناً اشتهر أكثرهم بالشجاعة والفتح والتقوى وتشجيع العلم والعلماء المتفقهين فى علوم الدين ، وقد تشبهوا فى حكومتهم بالخلفاء المتأخرين فاستوزروا الوزراء ، وصارت لهم مجالس للحكم ، وأصبحوا يولون الوزراء ويعزلونهم على مثال ما كان فى مصر الفاطمية حتى لقد استوزر أحدهم خمساً من الوزراء . واشتهر فى أيامهم نفر من رجال الصلاح والتقوى كالشيخ ادريس ابن محمد الأرباب وكان ولياً له معجزات منها أنه ظهرت فى جنوب النيل الأزرق ذراع بشرية بارزة من الماء مفتوحة الأصابع ، فذعر الناس منها ، وأسرعوا إلى الشيخ يسألونه فى هذا فخرج حتى أشرف على النهر فلما بصر باليد رفع يده وبسط إصبعه فاختفت اليد فى الماء

ولما سئل فى هذا قال : إنها تشير إلى قوة الاتحاد ، وكيف أن اتحاد الأصابع الخمس يعجز الماء عن أن يفرقها ! !وفى هذا القول معنى لا يغيب عن دولة مستقلة يرى شيوخها أن بقاءها رهن باتحاد بنيها فيرمزون لما يرون من أشياء إلى هذا المعنى السامى النبيل ، وهذا تفكير قوم بلغوا من سلامة التفكير والحرص على البقاء الحر درجة عظيمة لأن فى أقوالهم وتخريجهم لشؤونهم العارضة حباً لبلادهم وحرصاً على وحدتها .

وقد وجه ملوك سنار جهودهم الى الحرب ابتغاء نشر راية الاسلام ، وكان جهدهم منصرفا الى غرب النيل حيث كانت الوثنية قائمة تمتنع فى جبال دارفور وهضاب كردفان تحميها القبائل كقبائل الشلوك .

وكان ملوكها يحرصون على حسن الصلة بمصر ويحاولون الانتفاع بعلمائها وفقهائها وقد رووا فى ذلك قصصاً كثيرة منها أن الملك بادى أباذين ١٦٤٣—١٦٧٨م كان يرسل الهدايا الى علماء مصر حتى مدحه بعض شعرائهم بقصائد قيل فى إحداها.

أيا راكباً يسرى على متن ضـــامر
إلى صاحب العلياء والجود والبر
لك الخير إن وافيت سنار قف بهـا
وقوف محب وانتهز فرصـــة الدهر
وأهد سلاماً عطّـر الـكونَ نشره
ألذ من الماء المسلسل والقطر
الى حضرة السلطـان والملك الذى
حمى بيضة الأسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور بادى الذى له
مدائح قـد جلت عن العد والحصر

ومهما يكن من قوة هذه الأبيات أوضعفها فهى دليل على صلة مملـكة سنار بمصر ، ودليل آخر على أن بادى هذا كان عادلا مصلحا ، بنى بسنار مسجداً جامعاً وأقام لحـكومته قصراً من خمس طبقات؛ وشاد مخازن للأسلحة والذخائر ؛ وبنى خارج القصر مكانا يعرف بدكة من نادى يلجأ اليها المتظلمون فيخرج اليهم الملك ويجلس عليها ويقضى للناس فى ظلاماتهم .

وكانت لملوك الفونج حروب طويلة مع بلاد الحبش؛

ولا غرابة فى هذا فالسناريون مسلمون فيهم حماسة الدين والدنيا والأحباش نصارى، ولا بد لحرارة الايمان بالاسلام من حرب النصارى العريقين فى نصرانيتهم ، واشتدت الحرب وطالت بين السناريين والأحباش ، وانتهت بانتصار سنار نصراً مبيناً أذاع صيتهم فى مصر والشام وتونس والحجاز والهند ، وأقبل المهاجرون الى سنار يعيشون فى ظل ملكها القوى المصلح .

ولم يكف ملك الفونج عن الحرب فقفّى بحرب الحبش حرب كردفان فبعث اليها جيشاً قوّد عليه عدداً من كبار قواده بيْد أن أهل دارفور هزموه فارتد عنهم، ثم عاد فأقام على الجيش رجلا اسمه اللكليلك وكان قائداً ماهراً فانتصر على الكردفانيين ، ولكن أخباراً سيئة ترامت إلى هذا القائد الماهر فانقلب على سيده ؛ ذلك أن بادى قتل سيد علماء سنار فى هذا الزمان وهو الخطيب عبد اللطيف البغدادى ، واستبد الملك بعد ذلك بالأمر فنحّى أهل البلاد الأصليين عن مراكز الادارة والجيش وولى مكانهم أجانب من عبيده ؛ فثار ابن اللكليلك على الملك وجمع جيشاً عظيماً وسار إلى سنار ونفى الملك بادى

إلى سواكن وأقام مكانه ابنه ، ومنذ هذا التاريخ خرجت السلطنة من أيدى الملوك إلى الوزراء وأخذت دولتهم تنحط حتى انتهت إلى مثال من الفوضى والاضطراب .

وقد أراد الفونج فى يوم ما أن يبسطوا سلطانهم على أهل الشمال فمضوا حتى أدركوا الشلال الثالث ، وكان الأتراك قد أقاموا على هذه البلاد رجلا من الغز اسمه ابن جنبلان فأعد العدة لحربهم وأوقع بهم هزيمة منكرة سال من دماء الفونج فيها ما ملأ بركة واسعة عرفت بحوض الدم .

فخلافاتهم الداخلية ، وهزيمتهم عند الشلال الثالث ، كل ذلك أضعفهم ، وزاد ضعفهم ظهوراً ثورة القبائل الخاضعة لهم وخروجها عليهم كقبائل الهمج والتكارنة وكانوا عضد الدولة ، واندلعت بينهم على أثر هذا الحرب الداخلية ، وزاد الطين بلة انتشار الأوبئة فى البلاد ، ولم ينقذ السودان من هذه الفوضى غير الفتح المصرى على يد اسماعيل بن محمد على سنة ١٨٢١ م

سلطنة الفور

عرفنا ما كان من سيرة ملوك الفونج وقيامهم في سنار ، وعرفنا كيف وفق هؤلاء الملوك إلى إحياء تلك الجهات وبث نواحي النشـــاط فيها ، وإدخالها في المجموعة العربية الأسلامية ، بقى أن أحدثك بعد هذا عن سلطنة أخرى قامت إلى غربى النيل فى سهول دارفور تشبه إلى حد كبير مملكة سنار ، فقد عرفت أن الفونج يرجعون بنسبهم إلى بنى أمية وأنهم عنوا بربط الصلة بينهم وبين مصر وبلاد العرب حتى يوفروا لدولتهم ما يلزمها من الحضارة المصرية والدين الاسلامى

على غرار هذه الدولة قامت سلطنة الفور فى دارفور فى بدأ القرن التاسع الهجرى ، وكأنها أبت أن تكون أقل من جارتها شرفاً فنسبت نفسها إلى العباسيين ، وقصوا فى هذا قصصاً هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة خلاصته أن فتى عباسيا اسمه أحمد فرّ من بغداد واستقر فى سهول دارفور واتصل بملكها فأعجب به وزوجه من

ابنته فكان هذا مبدأ سلاطين الفور . وظاهر من هذه القصة أن أهل تلك الجهات يعنون عناية شديدة بأن تكون أنسابهم منحدرة من بيت عربى أصيل أو من بيت النبي الكريم ، وقد تصل بهم الرغبة فى الظهور والغلو إلى أن يدعوا المهدية أو الألوهية ، ومجمل القول أن سكان تلك الجهات شديدو التعلق بأنسابهم العربية ، وفى هذا دليل على تعلقهم بالإسلام وحبهم للعرب وتقديرهم لهم .

تعاقب على سلطنة الفور ستة وعشرون سلطاناً ، اشتهر أكثرهم بما عرف عن أهل هذه البلاد بالتقى والورع وحب الحرب وتعلقهم بالشجاعة واتصافهم بالأقدام ؛ وكانوا إلى هذا رجال سياسة ودهاء ، فقد صانع أحدهم المسمى عبد الرحمن ١٧٨٧ - ١٨٠١ م نابليون بونابرت ، وحاول كسب جانبه ضد المماليك الذين انحدروا إلى الجنوب من مصر وهددوا مملكته ، ومن مراسلات عبد الرحمن لنابليون تفهم أن هؤلاء القوم كانوا من النضوج واليقظة بحيث فهموا ما يدور حولهم من الناحية السياسية فسهروا على مصالح دولتهم

دون اعتبار للمسائل الدينية البحتة التى قد تؤثر على كيانهم كأمة مستقلة ، فقد تفاهموا مع الفرنسيين وهم من النصارى على المماليك وهم من المسلمين ، فاستعدوا الأولين على الآخرين ، وفى هذا بعد النظر واستقامة الرأى ودليل النضوج والاستواء .

ولملوك هذه الأسرة فى العدل سير مشهورة فى السودان فقد ذكروا أن السلطان عمر الثانى تهيّب أن يجلس على العرش مخافة أن يظلم فألح عليه الناس حتى قبل بعد أن اشترط على الحكام العدل والأمانة وحب الرعية ، فأذا بلغه أن ثلاثين من عماله يظلمون الناس ويثقلون عليهم أمر بهم فحملوا إليه فذبحوا جميعاً ؛ وكالذى حكوه عن ملك آخر ألحت عليه زوجه أن يعزل ابنه الأكبر اسحق ويؤثر عليه فى الولاية ابنها احمد ، فعرض عليها أن يمتحن شجاعتهما فأكثرهما شجاعة أولى منه بالرعاية والايثار .

وفى مجلس عرشه بعث فى طلب ولديه ، وكان لحجرته بابان ، باب للرجال وباب للنساء ، وكان فى حراسة باب الرجال أسدان ، فأما إسحق فدخل من باب

الرجال ولم يخش الأسدين ، وأما أحمد فقد أسرع من باب النساء ، وسكتت أمه بالرغم مما لها من حظوة عند أبيهما !!

وعنى الكثيرون منهم بأقامة المساجد كالسلطان سليمان أول سلاطين هذه الأسرة ، ولعل هذا راجع إلى حكمة ملوكهم ورزانتهم وحبهم للدين ورغبتهم فى إعلاء شأنه ؛ وقد كان لهؤلاء الملوك صلات طيبة بسلاطين آل عثمان فقد قيل أن السلطان عبد الرحمن أرسل إلى سلطان الأتراك كتاباً لقبه فيه بالرشيد وأهداه هدية من العاج والريش ، وقد اشتهر ذكر عبد الرحمن هذا لعنايته بالعلم والعمارة ، ولأنه وسع نطاق التجارة وعمل على نشر الاسلام واستقدم العلماء من كافة الأقطار، وقد ذكر لنا السائح الانجليزى براون الذى زار دارفور ١٧٩٣ شيئاً كثيراً عن تلك البلاد .

كذلك اتصل محمد على الكبير بسلاطين دارفور ، وبعث إلى سلطانهم محمد الفضل خطاباً يسأله فيه أن يدخل فى طاعته فرد عليه الفضل بكتاب (١) نورد لك

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ص ١٣١ جزء ثان

مقدمته ففيه اعتزاز بالنفس وكبرياء يصعب فهمها لولا التماس الصدق فى نوايا صاحبها

« الحمد لله الذى حكم بين عباده بالحق قطعاً ، سبحانه يجزى كل نفس بما تسعى ، واليه المعاد والرجعى ، وهو حسبي وكفى

« من حضرة من أمن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعاً من كل أحد وصيره فى قلوب الأعداء ناراً تستعر وجمراً يتوقد ، وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرد ومن ضل وتعنت وهو شاب صغير السن ولو صار كهلا لخضعت له الانس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعوارضه أنجم السعود ، وان قامت الهيجاء بنفسه يجود ، ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود ، هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد أعزه الله .

« الى حضرة الكوكب العالى والنير المتلالى بهجة الأنام وقدوة الليالى صاحب العز والافتخار أخينا العزيز محمد على باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنه وكرمه » .

وخلف الفضل هذا ابنه السلطان محمد حسين ، وكان معاصراً لسعيد باشا ، وكان بين الاثنين مودة وصفاء فأهداه سعيد مركبة بجوادين ، فتخوف منها ولم يركبها ، وأهدى إليه اسماعيل الهدايا الكثيرة ، ولكنه كان كثير الريبة فأدخل الأسلحة النارية ليستعيض بها جنده عن السكاكين والنشاب .

وكان آخر ملوك هذه الأسرة السلطان ابراهيم وكان ملكا عادلا كريماً محبوباً ، بقى على عرش دارفور حتى قتله الزبير باشا فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٥ . فأذا ما استولى المصريون على سلطنة دارفور قبضوا على عدد من أمرائها وأرسلوهم إلى مصر وأنزلوهم حى سوق السلاح وأجروا عليهم المرتبات كأنهم أسرى أو منفيون

وكان سلطان دارفور ممتداً من شاطىء النيل الغربى إلى حدود اقليم شاد وأوبنجى شارى فشمل قبائل بحر الغزال ، وقد وكل إليهم حراسة طريق الأربعين الذى يبدأ من دارفور ويخترق الصحراء حتى يصل إلى أسيوط ، وكان هذا الطريق صلتهم الوحيدة بالخارج ، لذلك كانوا أميل إلى المصرية منهم إلى العربية ، وخاصة بعد أن حال الفونج بينهم وبين بلاد العرب فلم يجدوا بداً من الاتصال بسلاطين آل عثمان والمماليك المصرية والأسرة المحمدية العلوية فى مصر .

* * *

تستطيع أن تخرج من هذا الفصل الطويل فى تاريخ السودان الاسلامى ببضعة حقائق أولها أن الاسلام

الذى بزغ على الجنوب من الشمال خلق دولا عاشت أجيالا ، وتستطيع أن تستنتج من خلال السطور تقدير الدولتين السودانيتين للمدنية المصرية فى شتى نواحيها بحيث اعتبراها مثلا أعلى لهما ، وتستطيع أن تشعر أن الصلات بين مصر والسودان فى الأسلام هى هى الصلات التى كانت بين القطرين الشقيقين فى عهد الفراعنة ، ومما يؤكد هذه الصلات الطيبة أن علماء مصر كانوا يفدون على سنار ودارفور وفوداً كثيرة ، تعيش فى ظل هاتين الدولتين كأنهم فى مصر تماماً ، كما نشعر بما لملوك هاتين الدولتين عند المصريين وخاصة شعراءهم وعلماءهم ، ولعل قصر طريق التجارة بين الدولتين والخارج على طريق الأربعين مما يدل على الوشائج الوثيقة بين الشعبين فى كل ما له صلة بحياتهم المادية والمعنوية .

فتح السودان

استقبلت مصر العصر الحديث على أضواء الحملة الفرنسية بقيادة أكبر أبطال العصر الحديث ، نابليون بونابرت ، فكأنها أبت إلا أن تستيقظ على يدى رجل ممتاز فى القرن الثامن عشر كما استيقظت على يدى أكبر رجل ممتاز فى التاريخ القديم كله وهو الاسكندر الأكبر ، ولعلها ملاحظة لطيفة جداً أن يكون لهذين الرجلين العظيمين هذان الأثران القويان فى تاريخ مصر القديم والحديث ؛ فتح الاسكندر مصر وحمل فى جعبته الحضارة الأغريقية الشابة التى قضت على الحضارة المصرية القديمة قضاء يكاد يكون تاماً ؛ ثم أقبل نابليون بمدافعه ورجاله وصيحات الحرية ونداء المساواة وإلفات المصريين إلى مجدهم القديم فاستفادت مصر دفعة واحدة حتى لقد استعادت فى أربعين سنة ما فاتها فى أجيال ؛ ذكرت ماضيها فى الشام والجزيرة وأثرها الخالد فى النوبة والسودان ، وتوجهت إلى هذا الرفيق الأخير فأيقظته

إيقاظ الفاتح الصديق ، ولم يكن اتجاه مصر إلى السودان عفو الخاطر أو قصراً على ذكاء واليها وإنما هى طبيعة مصر لا تجد عن السودان غناء ولا ترى عنه منصرفاً .

ثلاثة من الأسباب دفعت محمداً علياً إلى هذا الفتح الجديد ، فأما أولها وأهمها فرغبته فى المال ، وكانت هذه الرغبة مفتاحاً لسياسة هذا الوالى الرشيد فى السنين الأولى من حكمه بل فى سنوات حكمه جميعاً ، كان يريد المال للجيش والبحرية ولاصلاحاته العديدة التى جعلها فى خدمة جيشه وبحريته (١) ، وليملأ جيوب الأتراك بالرشاوى والهدايا ليسكتوا عنه ويدعوه فى سبيله آمناً مطمئناً ؛ كان محمد على فى أشد الحاجة إلى هذا الذهب الذى تسامع الناس بكثرته فى أقاليم السودان ، وإذا كانت موارد مصر لا تنهض بسد حاجاته الكثيرة فقد طاف بذهنه أن يفتش عن الكنوز الشائعة فى تاريخ الشرق ، والمستورة فى باطن أرض فى بلاد السودان فاختار فرنسياً اسمه المسيو كايو وأرسله فى نوفمبر ١٨١٦

---

(١) هذه الناحية من تاريخ محمد على مأخوذة عن الأستاذ العالم شفيق غربال من محاضراته فى كلية الآداب

ليكشف له مناجم عظيمة للذهب والزمرد قيل إنها توجد قرب إسنا ، وتصادف أن أفلح هذا الرجل بعضاً ما ، وعاد بشيء من الذهب والزمرد فقويت نفس محمد على ووطدها على فتح السودان .

ثم كان محمد على بحاجة إلى الجنود ، وقد يئس من جنوده الأتراك والأرناءوط لاضطراب نظامهم وميلهم إلى الفوضى والعصيان ففكر فى جنود السودان البواسل ، فكر فى أن يجلبهم وينظمهم ليتقى بهم شر الطوارىء وما أكثرها فى ذلك الزمان ؛ ثم كان يوجس خيفة من بقايا المماليك التى اعتصمت من نقمته فى دنقله وغيرها من أقاليم السودان ؛ كان يعرف أن المماليك لن يغفروا له غدره بهم وهدمه لعزهم وأنهم لا بد ناهضون لحربه يوماً من الأيام ففكر فى أن يبعث لهم بجنده الأرناءوط ، لعل قتالهم معاً يريحه من العدوين جميعاً !

إلى جانب هذا كان يفكر فى تجارة السودان وخيره ووفرة الماشية وريش النعام فيه ، وكان محمد على قد احتكر التجارة فى مصر على مثال الاشتراكيين وإن لم يفهم معنى الاشتراكية ولم يسر على تعاليمها تماماً ، لذلك

عمد إلى تجارة السودان ، راغباً فى احتكارها لتموين جيشه وأسطوله .

على أن هناك سبباً آخر لفتح السودان حدثنا عنه بعض المؤرخين ، وهو رغبة محمد على فى ربط صلة مصر بالسودان كعادة الملوك من أقدم الزمان ، ولكن محمداً علياً لم يفكر فى هذا قط ، ولم يكن عالماً بالتاريخ ليقيس الماضى بالحاضر ؛ بل كل ما يمكن أن يقال إن من طبائع الأشياء أن يفكر حاكم مصر فى ضم السودان إليه سواء دفعه إلى ذلك حب الفتح والغزو أو دفعه إلى ذلك إحساس بوجوب وحدة القطرين الشقيقين أو دفعته إلى ذلك رغبات كثيرة كالتى ذكرت لك طرفاً منها .

تلك هى الأسباب المهمة التى جاشت فى نفس محمد على حين هم بفتح السودان ، أما ما يقال من أنه هفا إلى اكتشاف منابع النيل فأمر لم يدخل فى حساب هذا الرجل الذى كان يفكر فى سلامة بلاده وتقوية جيشه وأسطوله قبل العلم والاكتشاف ، وإنما استحسن بعض المؤرخين أن يضيفوها إليه خيالا منهم أو زلفى إليه ؛ نعم إنه بعث « بيكر» وأعانه على الوصول إلى منابع النيل

بيد أن هذا يرجع إلى رغبة الجمعية الجغرافية الانجليزية التى أرسلت بيكر وعاونت غيره من المكتشفين .

أقبلت جيوش مصر على السودان وحاله كما رأينا ضعفاً وارتباكا ، كان أمر الفونج قد اضطرب وملك فيهم الوزراء دون الملوك ، وكان سلطان الفور قد تضعضع واشتد فى الناس ظلمهم حتى استنجد الكثيرون منهم بمحمد على، وهونوا عليه أمر فتح البلاد والاستيلاء عليها، فلم يكن فتحاً حربياً بالمعنى الصحيح ؛ بل كان فتحاً للحضارة الحديثة تدخل السودان ، تلك المدنية التى كانت مصر نفسها مقبلة عليها راغبة فيها ، ولم يشعر أهل السودان بأن المصريين مستعمرون فاتحون كما أحسوا غداة أقبل الانجليز ؛ لم يستقبلهم بالعداوة إلا ملوك البلاد وحكامها الذين لا مفر لهم من هذا القتال دفاعا عن أملاكهم وسلطانهم ؛ أما الأهلون فقد استقبلوهم باليمن والطاعة والرضوان . وكان فتح مصر فى هذه الآونة لازماً لا لمصر وحدها بل للسودان أيضاً ، فأن أوربا كانت قد بدأت تمد أجنحتها لتطوى إفريقية بأسرها ، فكان فتح مصر للسودان إذن إنقاذاً لهذا القطر

من استغلال الاستعمار ، وتحريراً له من ربقة الأجنبى ودينه وعاداته ، فلم يصبه ما أصاب الكنغو على يد البلجيك ولا البوير على يد الانجليز ، ولا شمال إفريقية على يد الفرنسيين دعاة الحرية والنور والمساواة ! كان لا بد أن ينتمى السودان لاحدى الدول فقامت مصر بهذا الواجب الذى يفرضه عليها الجوار وصلة الدم والتاريخ .

طبيعى أن تتوجه الفتوحات المصرية إلى مراكز القوة فى هذا القطر وهى مملكتا سنار ودارفور وغيرهما من الأمارات الصغيرة والمدن القائمة التى لا داعى لذكر أسمائها؛ ولم يكن حرب السودان صعباً ولا عملا عظيماً ، لأن الأهالى كانوا يرغبون فى حكم المصريين ، ولأن جنود الملوك السودانيين يقاتلون بالفؤوس والعصى بينما يحارب المصريون بالبنادق والمدافع وما اليها من معدات الحرب الحديثة ؛ فلا غرابة إذا هزمت قوات السودان فى كل مكان مع شجاعتهم وامتيازهم على منازليهم من الأتراك والأرناءوط ، ولعل أشد هذه الوقائع وأحقها بالذكر واقعة فى دنقلة ، خرج فيها حكام السودان بخير رجاله

وفرسانه ؛ وكان قائد الجيش المصرى أحد أبناء محمد على واسمه اسماعيل ؛ كان محارباً ممتازاً وجندياً كريماً ، قيل انه وقعت فى يده ابنة لأحد ملوك السودان أسيرةعقب هذه الواقعة المشهورة فأكرمها وردها إلى أبيها سالمة موفورة فشكر له الرجل هذه اليد بالطاعة ورد له المعروف بالاخلاص والوفاء .

ثم أرسل اسماعيل إلى الملك بادى كتاباً يدعوه إلى طاعته فكتب اليه محمد عدلان وزير الملك بادى يقول :

« لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية . أما بلغك أن سنار محمية بصوارم قواطع هندية وخيول جرد أدهمية ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية »

ومع هذا لم تفدهم الصوارم القواطع ولا الخيول الجرد الأدهمية ؟ !

كانت واقعة دنقله فتحاً للسودان حقاً إذ سمع ملوكه ورؤساؤه بقوة الجيش المصرى فأقبل الكبراء والعلماء وشيوخ القبائل مسلمين طائعين ، فأغز اسمعيل السير إلى أنحاء السودان حتى أقبل على سنار ففتحها فى غير عناء ، وبلغ محمد على خبر هذا الفتح فسارع وبعث ابنه الثانى

ابراهيم ليتعاون ولداه معاً على اتمام فتح هذ القطر الفسيح فوصل إلى سنار فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١ م . واتفق الأميران على أن يتجه اسماعيل شرقاً مع النيل الأزرق وابراهيم جنوباً مع النيل الأبيض ، أما كردفان فقد بعث محمد على زوج ابنته محمد الدفترداد فوصل الأبيض فى اكتوبر ١٨٢١ ، وناجز ملكها محد الفضل ، فانتصر عليه ودخل كردفان ثم أخـــذ يتأهب لفتح دارفور نفسها ولـكن حال دون ذلك نبأ موت اسماعيل .

وكان مصرع اسماعيل أمراً محزناً حقاً ولـكنـه « خيانة مشروعة » من خيانات الحروب التى تحللها حرب البقاء ؛ كان نمر ملك شندى رجلا ذا سلطان عظيم فلم يرضه أن يمتهن ملكه بهذا الفتح المفـاجىء ، فتظاهر بالتسليم وأولم لاسماعيل وجنده وليمة فاخرة وقدم لهم كثيراً من المريسة (١) حتى سكروا ، فلما ناموا أشعل النار من حولهم فقضى عليهم جميعاً . وكان الدفتردار يسعى إذ ذاك لفتح دارفور فبلغـه الخبر فتحول عن

---

(١) نوع من الخمر فى السودان

دارفور وقصدإلىشندىوأوقع بجيشهاهزيمةمنكرةولكن نمراً أفلت من يده ، فأخذ العدد الكثير من رجاله وبعث بهم إلى مصر ليكونوا فى جند حميه والى مصر العتيد .

بهذه الحملات اليسيرة أصبح السودان كله أرضاً مصرية ، ولم يخرج عن سلطان مصر إلا بلاد خط الاستواء ، صار لمصر هذا الملك الواسع العظيم وكان فى امكانها أن تنظمه وتحضره على غرار الشمال فيكون للبلاد منه خير عميم ، ولكن أنى لها ذلك والعقبات تصدها من كل طريق ، كانت إدارة هذه البلاد تحتاج إلى الموظفين الأكفاء ولم يكن لدى الوالى منهم غير النزر اليسير ، وإذا كان هذا الوالى قد افتقد هؤلاء الموظفين لمصر نفسها فكيف له أن يسد النقص فى السودان ؟ إن مشكلة الموظفين كانت من أثقل الأعباء على حكومة محمد على[1] حتى إنه اضطر إلى تعيين الأجانب فى الوظائف الرئيسية التى لا ينبغى أن يقوموا فيها بجنسياتهم ودياناتهم حكاماً على الفلاحين المسلمين كما حدث فى تعيين وال فرنسى على الجيزة .

---

(١) محاضرات الاستاذ شفيق غربال فى الجامعة المصرية

لم يجد محمد علي إلا نفراً من الأتراك لملء وظائف الحكومة فى السودان فكان هؤلاء شراً على السودان من تجارة الرقيق وعسف ملوك الفونج ودارفور ، كان أولهم رجلا اسمه عنان بك وصلت المجاعة فى عهده إلى حد اضطر الناس إلى أكل الكلاب والحمير ، وكان من رجال محمد على حاكم عظيم يقال له خورشيد باشا الذى غزا الشلك وغيرها ، وأجبرهم على الخضوع لسلطان مصر وانحدر إلى مرتفعات دارفور فبلغها ثم أقام لمصر هيبة فى الحبشة ؛ وكان ضمن ولاة محمد على فى السودان المفسد الظالم محمد الدفتردار زوج بنت محمد على الذى كان نكبة نزلت هذا القطر الشقيق وفضيحة فى وجه الحكم المصرى يتحدث الناس عن قسوته فيزعمون أنه كان يصطاد العبيد كما يصطاد العصافير ! آلافا من العبيد يرسلهم إلى مصر ، يسوقهم سوق الانعام لا يعنى بصحتهم ولا طعامهم حتى قيل إن عشر آلاف من هؤلاء العبيد يصلون إلى مصر خمسة آلاف فحسب ، بعضهم يموت جوعاً أو عطشاً وبعضهم يتصرف فيهم هو وزوجته كما يهوى وتهوى


الزبير رحمت باشا العباسي بحلوان
سنة ١٣٢٠ هـ



ولم يكن فى هـــذا الهوى بداهة ما يرضى الضمير والأخلاق فلم يجد محمد على بداً من أن يقيل الرجل مخافة أن تضطرب البلاد من قسوته والتواء خلقه. وقد كانت علاقة السودانيين بالوالى علاقة دافع الضرائب بالجابى ! لم يفكر أحد من هؤلاء الولاة فى شيء من الخير لهذه البلاد، فلم يجد أهل السودان مبرراً لهذا الخضوع الذى يكلفهم الضرائب الباهظة والطاعة والرقيق دون أن يستفيدوا من العلم المصرى شيئاً ؛ كانوا قد رحبوا بالفتح المصرى واطمأنوا إليه ليرفع عنهم أثقال الظلم وقسوة العتاة من حكام السودان، ولكن ولاة محمد على خيبوا رجاءهم فى عدل مصر وإنصافها .

على أن والى مصر ، والمصريين الذين يغارون على وحدة القطرين قد اضطروا إلى الالتفات عن أمر السودان وتدبير الخير له، فظروف مصر الخارجية أولاً وجهت النشاط المصرى إلى خارج البلاد كما أن تنظيم مصر ومواردها كلف الوالى اختصار نشاطه ووقفه على الشمال وحده ؛ وثمة أمر آخر صرف همته عن العناية بأمر السودان ذلك أنه لم يوفق إلى تكوين جيش من السودانيين ، إذ أن معظم الجيش من السود الذين لا يحتملون

جنود مصر فكان أكثرهم يموت أو لا يصلح للجندية النظامية ؛ أما الذهب وهو غرض مهم من أغراض الفتح فقد يئس الوالى منه كل اليأس حتى لقد اشتدت به الأزمة ١٨٣٨ فوفد على السودان بنفسه لينظر هذا الأمر وعاد منه صفر اليدين ؛ وإذا خاب الوالى فى تكوين جيش من السود والحصول على الذهب فلم يبق له فى السودان إلا الضرائب يسرف ولاته فى تحصيلها لتحقيق مطامحه الملحة فكان ذلك خطراً على الحكم المصرى فى السودان، هذا الحكم الذى لم يكن يوماً من الأيام إلا خيراً للسودانيين .

فاذا كانت ١٨٥٧ زار سعيد باشا السودان ، وكان رجلا رقيق القلب قنوع النفس فلم يجد من الخير الاحتفاظ به وفكر فى الجلاء عنه وتركه لسكانه وتحدث فى هذا إلى بعض أصحابه وعلم أهل السودان بهذا فتقاطروا عليه ورجوه ألا يفعل مخافة أن يعودوا إلى ظلم حكامهم الأقدمين وهم على كل حال ينعمون فى ظلم المصريين ! فأقر سعيد باشا الحال على ما هى عليه ، وخفض الضرائب ونظم البريد وكون من الأعيان مجلساً يعقد مرة كل سنة

للنظر فى راحة وطمأنينة أهل البلاد ، وأراد أن يزيد البلدين صلة فعهد إلى المهندس الفرنسى موجل بك فرسم له مشروعاً لخط حديدى بين حلفا والخرطوم .

كان يرجى للبلدين من هذا الفتح الخير العميم ، ذلك أنه وصْل للصلة الطبيعية الواجبة بين هذين القطرين: كان يرجى للسودان أن يفيد من حضارة مصر ونهضتها وكان يرجى لمصر الفائدة من وراء العلم المصرى فى السودان ؛ ولكن مصر شغلت بالخطر الذى أقبل عليها من جانب أوروبا التى وقفت لها ولنشاطها موقف العداء فى غير مبرر لهذا العداء أللهم إلا نصرة الرجل المريض أى تركيا فى ذلك الزمان (١) ، وزاد الأمر سوءا بين البلدين حاجة مصر نفسها إلى العمال الصالحين فى كل نواحى الحياة مما قصر نشاطها على نفسها فحسب ولا ننسى ونحن فى معرض الذكرى أن نتحدث عن يد الانجليز فى تسوىء الحكم المصرى فى السودان مما ستعلم نبأه بعد حين ؛ ومهما يكن من أمر فقد كان فتح مصر للسودان نشراً للحضارة المصرية النشيطة فى

---

(١) الاستاذ حسين مؤنس فى كتابه « الشرق الاسلامى فى العصر الحديث »

تلك الربوع : نعم إن العصر الحديث لم يكن خيراً على السودان من عصره القديم ، ولكنه لا يخلو من الخير على كل حال ولو لم يكن فيه غير ربط البلدين وتوحيدهما من جديد .



أقاليم خط الاستواء

حدثتك فى الفصل السابق حديثاً مقتضباً عن فتح السودان ، وذكرت لك أن والى مصر لم يكن يعنى باكتشاف جهات خط الاستواء من الناحية العلمية لافتقاره إلى العمال المصريين فى هذا الباب ، ولو وجد هؤلاء العمال الذين يستطيعون القيام بأمور الكشف لما كاف خاطره وجنده هذا المجهود الذى لن يعود على مصر بالذهب والجنود السود ! ولكن ولاة مصر ممن أعقب محمداً علياً كانوا يرغبون رغبة صادقة فى تشجيع كل من يعمل على إعلاء شأن مصر وأسرتهم فيها . لذلك كانوا يمدون يد المساعدة للجمعيات الأجنبية التى تفد على مصر باحثة منقبة عن آثارها ، أو مغامرة فى مجاهل إفريقية من أجل العلم والمعرفة .

فحديث اكتشاف أقاليم خط الاستواء إذن حديث يحمل فى طياته فخاراً لمصر . ذلك أنها قامت باكتشاف تلك الجهات النائية وتمهيدها وإعدادها للحضارة ، وتعهدت

العلماء الذين قاموا بهذا العمل بأموالها ورعايتها وجنودها وحكامها وكل ماتستطيع أن تبذله من المعونة حتى يبلغوا الغاية المرجوة ، وكان أغلب هؤلاء العلماء والقادة غير مصريين لأن هذا النوع من الرجال لم يكن قد وجد فى مصر بعد . أو قل لم يعن محمد على بأعداد هؤلاء المكتشفين بالرغم من أنه جدد فى جميع نواحى الحياة المصرية من فنية وعلمية ولولا هذا لظهر فينا من المكتشفين كما ظهر فينا فلكى كمحمود باشا العالم المشهور، وعلى مبارك باعث المعارف فى مصر ورفاعه رافع الذى أسس مدرسة الخرطوم وله فى الحياة الأدبية آثار . كان أكثر هؤلاء العلماء إنجليز الجنسية غير أن عملهم محسوب على مصر ولهـــا لأنها استقدمتهم وكلفتهم بذلك ، ولم يخلص أكثرهم لمصر بل اتجهوا بأخلاصهم لبلادهم . كان أكثرهم يخدم الجمعية الجغرافية الأنجليزية أو وزارة الخارجية البريطانية ، فانصرفت الفائدة الى الانجليز دون المصريين .

وكاد الفخر ينصرف إليهم لولا أن قيض الله للحق بعض أنصاره يقولونه ثواباً وإحسانا .

طبيعى جـــداً ألا تعنى مصر كثيراً بفتح الأقاليم

الاستوائية ذلك أنها كانت عاجزة كل العجز عن تنظيم
مافتحته ورفرف عليه علمها فلم يكن هناك داع لأن تفكر
فى فتح جديد ، وكانت كل علاقتها بأقاليم خط الاستواء
أنها حاولت منع الرقيق منه فأصدرت منشورات بهذا
دون أن يكترث لها أحد ، ولم تمنع التجار من المتاجرة فى
هذا النوع حتى ساهم نفر من حكام مصر أنفسهم فى
هذه التجارة النافقة السوق .

كان قصارى سلطان مصر فى تلك الجهات أن تقطع
بعض الأسر إقطاعيات وأشهر المقطعين أسرة العقاد
وأشهر أفرادها السيدان احمد وموسى اللذان كانا يدفعان
للحكومة المصرية خراجاً قدره خمسة آلاف جنيه فى
السنة على ألا يتجرا فى الرقيق ، وكانت كل تجارتهم فى
الرقيق ! ! فزاد نظام الاقطاع تجارة الرقيق زيادة فاجرة إن
صح التعبير . فقد هيمن على هذه البلاد نفر من الأتراك
تركت لهم الحرية كاملة فى تجارة الرق والعبيد ،فاذا امتنع
عليهم الأهلون استعانوا بمصر وجنودها بحجة عصيان أهل
البلاد فى دفع الضرائب أو ماشابه ذلك ،فساء الأمر أهل
هذه البلاد وعم الظلم فيها وضربت الفوضى أطنابها .

على أن الأنجليز لم يغفلوا هذه الحال ، وكانوا يرجون أن يمهد لهم المكتشفون فى أقاليم الاستواء عسى أن يرفعوا عليها علمهم وينشروا سلطانهم يوماً ما ؛ توجهوا فى نشاط لكشف هذه الاقاليم ، وأقاموا لهذا جمعية غنية أسموها الجمعية الجغرافية الأفريقية ، وأخذوا يبعثون البعوث لهذا الغرض حتى استطاع اثنان من مغامريهم الوصول إلى منابع النيل وأطلقا على بحيراته اسم ملكتهم وزوجها تيمنا باسميهما وتأكيداً لسلطانهما ؛ وما دامت حكومة مصر قائمة تنفق المال ذات اليمين وذات الشمال ، وما دام اسماعيل يسعى جهده ليجعل بلاده قطعة من أوروبا ! فلا بأس من السعى لديه حتى ينفق على هذه البعوث ويزكى رجالها وهو الطويل الباع العزيز الجانب.

تم هذا السعى وكانت خدعة موفقة وأرسل السير صموئيل بيكر (١) فانطلق حتى دخل منطقة الاستواء ووصل غندكرو فى ٢١ ابريل ١٨٧٠ فسماها الاسماعيلية تيمناً باسم اسماعيل وجعلها مركزاً لحكومته ، ثم واصل السير حتى وصل إلى بحيرة فكتوريا ،

(1) Jules Cocheri „ Situation internationale de L'Egypte et du Sudan„

وبهذا كان أول إنسان وفق إلى السير من منبع النيل إلى مصبه ، وكان يحرسه جنود مصريون ؛ فأذا فرغ من مهمته عاد إلى الخرطوم ثم إلى القاهرة وسأل أن يعفى من العمل فأجيب إلى غايته وعاد إلى بلاده .

أصبح على مصر أمراً واجباً أن تعنى بتأمين هذه البلاد وحكمها ومنع الرقيق فيها وتحضيرها ، فأين لها هذا كله وهى عاجزة عن أن تجد العمال الأكفاء فى مصر نفسها ؟ وكان الانجليز يعرفون هذا فنصحوا الحكومة المصرية بأن تكل أمر هذه الجهات إلى الكولونيل غوردون

وكان غوردون رجلا فذاً ، كان علماً مفرداً بين هؤلاء الساسة الانجليز الذين يعيش شرفهم فى دخان سيجارتهم ؛ كان فارساً شجاعاً ذا ضمير حى فكان فى ضميره حتفه وإن لم يعدم جزاء هذه التضحية الغالية التى سيأتيك نبؤها فى عرض طرف من سيرة هذا الرجل القمين بأعجاب الأحرار وتقديرهم .

وجد غوردون نفسه فى متاهة لا نهاية لها ولا آخر ؛ أقطار تمتد امتداد الخيال شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً والرجل موكول إليه حكمها ومنع تجارة الرقيق فيها ؛

وكل قوته لهذا الغرض نفر من الجند لا يزيدون على الألف عداً من الأتراك والسودانيين والعرب ، ولم تكن له صلة بتلك الأصقاع من قبل فلم يدم حكمه طويلا غير أنه كان مصحوباً بنفر من أعظم الرجال الذين كان لهم الأثر العظيم فى تاريخ السودان ، وكانوا يصدرون فى أعمالهم عن ضمير حى ونفس شريفة ، هم أمين باشا وحسن باشا والميجر شاى لونج ، وكان معه مركبان بخاريتان أنزلهما فى النيل فبقيا فى مياهه العالية بين فويره وغندكرو حتى قامت الثورة المهدية .

بقيت أقاليم بحر الغزال ودارفور فقيض الله لمصر رجلا عظيما أتم فتحها ونشر عليها علم مصر وسلطانها ؛ رجل سودانى من التجار أغراه المال بأقامة ملك له فى هذه المجاهل وأراد بعد إنشاء هذا الملك أن يمتنع على الحكومة المصرية ، ولكنه عاد ووزن الأمر جيداً فوجد أنه لن يستطيع مقاومتها طويلا فبايع خديوى مصر وأرسل إليه يعلن طاعته وخضوعه فأقامه الخديوى على تلك البلاد ومنحه الألقاب حتى أصبح اسمه الزبير باشا ولبس اللباس الرسمى الموشى بالذهب ؛ كان رجلا ممتازاً يستحق أن نقف وإياه لحظة .

تصور لنا حياة الزبير التفكير السياسى أو الحياة السياسية التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ، تصور لنا كيف كان رجال السياسة ينهضون إلى مراتبهم ومراكزهم وكيف يعزلون ويجرى فيهم قضاء منافسيهم : ثم تصور لك السياسة الانجليزية التى سنعود إليها بالشرح فى فصل مقبل ، كيف أن هذه السياسة لم تكن ترضى عن وجود حاكم صالح فى السودان حتى لا يستقر أمر مصر فيه .

فتح الزبير أقاليم شكا وبحر الغزال ثم دفعه إخلاصه إلى إرسال طلب إلى اسماعيل باشا أيوب الوالى المصرى فى السودان يطلب إليه أن يستلم زمام هذه الأقاليم الجديدة ويحكمها باسم خديوى مصر ، وأراد الخديوى أن يكافئه فأقامه عليها ؛ فانطلق يحارب فى هذه البلاد حتى ضم لمصر ملك دارفور وبحر الغزال وهذه الجهات النائية ، واضطرب الانجليز لسلطان مصر الذى بدأ يستقر فى هذه الجهات فسعوا إلى الوقيعة بالزبير باشا ، وأذاعوا للخديوى كثيراً من الافتراء عن هذا الوالى السودانى الشريف ، وما كان أسهل الاتهام فى تلك

الأيام ، فأرسل إليه الخديوى يستدعيه إلى القاهرة « للمداولة معك فى تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك وتحت إرادتك » فتخوف الزبير ولم يكن ساذجاً حتى تجوز عليه خدعة كهذه وتردد فى الذهاب وقال « فلما تلوت التلغراف شعرت فى نفسى بأنى إن ذهبت إلى مصر فلا أعود إلى السودان وبذلك شعر رجالى أيضاً وأرادوا منعى من الذهاب ولكن إخلاصى لحكومتى وشرف نفسى قضيا على بالمحافظة على قولى فجئت إلى مصر » (١)

كان هذا الرجل كريماً شريفاً حقاً ، وعد فأنجز وعده بالرغم من الخطر الذى يتهدده فى القاهرة نتيجة هذه المؤامرة الدنيئة التى صنعها له الانجليز عند الخديوى ، وهو حين يتحدث يظهر منتهى الولاء لخديويه ، فأذا وصل إلى مصر أمره الخديوى ألا يبرحها ثم طوح به فى حرب القرم ١٨٧٧ فعاد سالماً ولم يمت لسوء حظ الانجليز . هنا اضطرب آل الأمير على رجلهم وتوجس ابنه سليمان خيفة عليه فثار فى أقاليم بحر الغزال فأخذها عليه الانجليز حجة قائمة ، وذهبوا إلى أنه أوصى ابنه

(١) من مذكرات الزبير باشا

بالثورة وحاولوا محاكمته فلم يجد الرجل بداً من الذهاب إلى بيرنج (كرومر) ليسأله فى هذا الأمر ، ولما لم يجدوا سبيلا إلى إثبات التهمة عليه تركوه ثم أرادوا إذلاله فسيروه فى ركاب بيكر لحرب عثمان دقنة (١) فرفض وعاد إلى مصر .

ثم ذهب غوردون إلى السودان لكى يخليه وبعث يطلب الزبير وألح فى هذا إلحاحاً شديداً ، غير أن لندن رفضت ذلك ، وضاقت حكومة لندن بالرجل واتهمته بالتآمر مع المهدى وهاجموه وفتشوا داره ونفوه إلى جبل طارق فلبث فيها ثلاثين شهراً ثم أطلقوا سراحه فعاد إلى مصر فى سبتمبر ١٨٨٧ فأذا استقر الأمر للانجليز سمحوا له بالعودة إلى السودان فذهب ولبث هناك سنين ثم عاد إلى مصر فعاش فى حلوان إلى أن مات فيها .

ذلك هو الزبير وتلك حياته ، وفيها الشرح الوافى لأساليب ذلك العهد ، وموقف الانجليز من المصريين فى السودان وسير أموره ومقاييس الرجال فيه فهو يحدثنا بوضوح عن المسائل التى كانت حكومة اسماعيل

---

(١) زعيم من زعماء الدراويش وساعد قوى لمحمد احمد المهدى . اقرأ عنه فى كتاب "The Egyptian Soudan" تأليف Alford and Sword

تعالج بها إدارة البلاد فقد عين الزبير حاكما على أقاليم بحر الغزال دون أن يزور مصر واطمأن الخديوى له ما دام يستطيع أن يؤدى اليه المال الذى يفرضه على هذه الجهات ورضى عليه إسماعيل أيوب باشا حاكم السودان العام لكفاءته ونشاطه ، وكان فى استطاعة الزبير أن يسير فى طريق الرقى والوظائف إلى أعلا الدرجات لولا أن الانجليز لم يرضوا عن هذا الحاكم القوى وهم يريدون حاكما ضعيفاً تضطرب معه أمور البلاد ويسوء بوساطته اسم مصر فى السودان ؛ لذلك غضبوا عليه كما سيغضبون على أمين باشا وعلى غوردون نفسه وقد ساقوه إلى حتفه على الرغم منه وقدروا مصيره بأيديهم ، فكان مصير الزبير ومصير أمين باشا وغوردون واحداً .... ضحايا فى ركب الاستعمار الانجليزى .

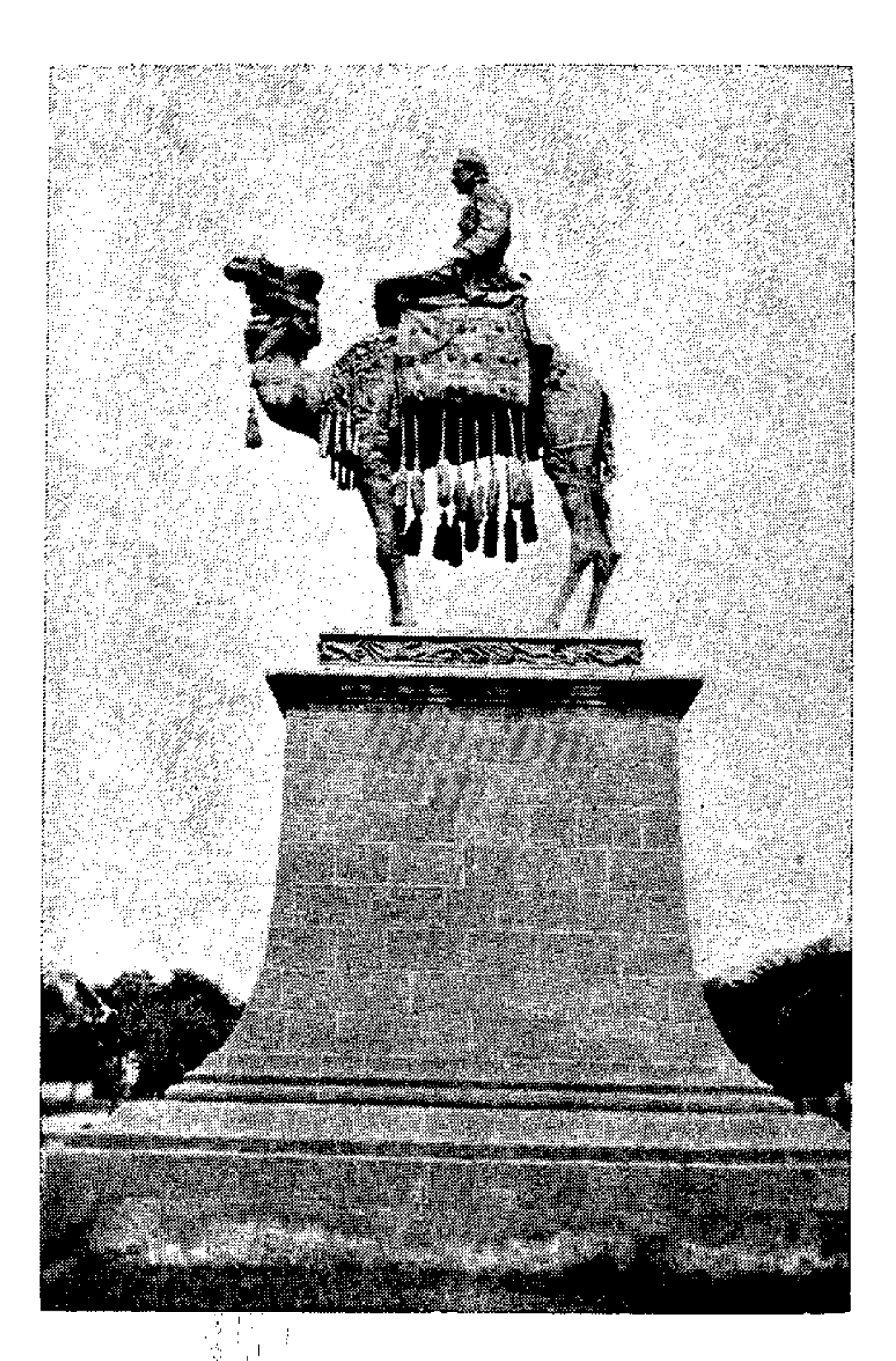
أوروبا واستعمار افريقية

لهذا الفصل حديث محزن يشق علينا أن نقدمه لك لما فيه من مرارة وأسى ، هو حديث أوروبا العظيمة النشيطة التى تحيا حياة أقل ما يقال فيها إنها حياة بقاء ؛ وحديث إفريقية المريضة المتثاقلة التى تعيش فى دياجير الجهل فى حياة أقل ما يقال فيها إنها مقدمة فناء؛ موضوع فيه العبرة لمن أراد الاعتبار ، ولكن الأفريقيين لا تغريهم العظة فلا يزال النائم نائماً والمفلس مفلساً ، والخامل خاملا ولا تزال أوروبا فى جهادها وكفاحها نشيطة عظيمة لا تكاد تلمح البارقة أو الفريسة حتى تنقض عليها فى فى شره ونهم وتفوز منها بما تشتهى وتريد .

كانت اليونان أمة نشيطة منذ عرفها التاريخ قبل مولد المسيح بقرون ، هى أمة قادرة ، استعدت للحياة استعداداً طيباً وحفلت بأمرها احتفالا عظيماً ، هاجر اليونان إلى آفاق الأرض وضربوا فى مناكبها وازدحمت الدنيا

القديمة برجالهم وأبطالهم : فى آسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأسود ، فى مصر وصقلية وفى إيطاليا حيث استوطنوا تلك الجهات وأنشأوا المستعمرات فيها ، وخلقوا الأمم التى طار صيتها فى الغنى والقوة وبزت فى مواردها وشخصيتها بلاد اليونان نفسها .

هذا الاستعمار القديم اختفت شدته حيناً من الزمان يقدرها المؤرخون بخمسة وعشرين قرناً ؛ ثم تمخضت الدنيا عن لون جديد من الاستعمار ، هو أشد هولا من استعمار اليونان ، فأن أوروبا فى القرن التاسع عشر أصابها سعار الاستعمار حين ضاقت بناسها فانطلقوا إلى الأرض يتقسمونها كأنها ملك حلال لهم أو كأنها ضياع بلا مالك Res Mullius والسابق السابق من دول أوروبا ، ومن أدرك بقعة فى العالم الشرقى رفع عليها علمه وأصبحت أرضه التى لا ينازعه فيها منازع ، أهلها عبيده وزرعها طعامه وحيوانها صيده ؛ كان هذا اصطلاحا بين أهل ذلك الزمان فرضته أوروبا على العالم تلك التى نادت يومها بألغاء الرق ، فكأنها ألغت رق الأفراد وأباحت رق الجماعات ! كان العرف قد جرى على أن يخطف



تمثال غوردون باشا



الانسان فرداً فيسترقه على مايهوى أما عرف القرن التاسع عشر فشيء آخر ، يخطف الشعب كله فاذا هو رقيق وإذا أرضه ضياع للدولة الفاتحة وأفرادها عبيد وأنفهم راغم فى التراب ؛ جهزت أوروبا أساطيلها وسلحتها بالجيوش وأطلقتها تضرب فى بقاع الأرض.

وأقبل الفرنسيون فاكتسحوا غرب إفريقية اكتساحا، وأقبل الانجليز فاحتلوا الجنوب وتوغلوا الى الشمال فكان لهم نصف قارة بأسرها ، واستيقظ المصريون فضموا بجناحهم نصفهم الثانى فكان لهم السودان ومايتبع السودان إلى منابع النيل ، وأفاق الايطاليون فى أعقاب الدول العظمى فتراموا على الحطام وفضلات المائدة فأصابوا طرابلس ثم أخذوا من مصر هرر ومصوع ونافلة من الأنجليز هى الصومال ، ولم يثبت البرتغاليون إلا فى إقليمين صغيرين أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب هما أنجولا وموزمبيق ، وأحس النسر البروسى بالغنيمة المشاعة فأقبل يرفرف فى طلب الرزق الحلال ! فأزعج أصحاب الغنيمة فنزلوا له عن صقع فى الغرب وصقع فى الشرق فحط فيهما لحظة ومضى

يضج من ظلم الفرنسيين والأنجليز وهم على رعب منه يحاولون إرضاءه وإسكاته وانتهى أمر الدولتين الديمقراطيتين أخيراً الى التضافر على هذا النسر الحديدى فى اتفاق سموه الاتفاق الودى ١٩٠٤ قررا فيه أن يكونا يداً واحدة عليه إن حاول لهما شراً ، وبقيا على عهدهما حتى قامت الحرب العظمى فى سبيل الاستعمار وإذا النسر حطام يكاد يلفظ النفس فى ١٩١٨ .

هذه العجالة الخاطفة تصور لك الحركة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر والتى يطلق عليها المؤرخون إسم تقسيم إفريقية فان هذه القارة بقيت مغلقة دون المستعمرين زماناً طويلا ؛ قسمت أمريكا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وفرغ الأوربيون من أمرها فى القرن الثامن عشر وكفوا يدهم عنها مرة واحدة بعد قرار مونرو ١٨٢٣ ، وكانت آسيا قد فرغ الناس من أمرها ؛ قضى على الهند نهائياً وقضى على جزائر الملايو ، وتقرر مصير الشرق الاسلامى بولاية الدولة العثمانية الضعيفة عليه ، وتمزقت الصين واستقلت اليابان ، فلم يبق غير إقليمين اثنين يتنازع عليهما الناس هما الولايات الألمانية فى أوروبا وقارة

إفريقية . فأماالولايات الألمانية فقدانضمت فى كل واحد تحت العلم الألمانى الذى أظهر بفضل بسمارك دولة ألمانيا الحديثة ١٨٧٠ وأماإفريقية فقد انتهى أمرهاعلى الأسلوب الذى شرحته لك وأزيدك الآن فيه إيضاحا .

كانت إفريقية فى تلك الأيام فى سبات عميق يسودها دينان ، الاسلام والوثنية ، ويتقسمهالونان البيض والسود ، يحياأهلها حياة لاتقوم على أساس ولا معرفة ، حياة أيامها متشابهة تنقضى على وتيرة واحدة فى صيد أو فى صلاة وتنتهى الى موت لا أثر له ولا خلود فيه ، كان الناس أقل من جهال ، يعيش النصف أوأكثر من النصف على الفطرة عرايا كما خلقهم الله، السهم سلاحهم والطوطم إلههم ، جعلوا عيشهم حرباً بين قبيلة وأخرى ، يخذل بعضهم بعضاً، أعداءبشريعة الحياة، جهالا كسالى لايشعرون بقيمة العلم والعمل ولم يعملون والله قد مهد لهم الرزق وبسط لهم الخير ؟ يضربون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار لاتشاركهم فيها غير الحميات والحيوانات ، فاذا كثر ولدهم لايخافون الموت فالجنس وفير والقوم حشد نفير !

وأما الفريق الثانى ففى مصر وشمال إفريقية : كانوا يعيشون تحت وصاية الأتراك(١)، وكان الأتراك فى ذلك الزمان ضعفاء جهالا لا يفترقون عن وثنيي أفريقيا إلا فى جهلهم المترف وحيوانيتهم المنظمة ، وكان الأتراك أوصياء يقودون مصر وشمال أفريقية والسودان فى طريق لا غاية لها ؛ وضعهم السلطان فى حجرة وأحكم غلق بابها ومضى بهم الى حيث يشتهى ، فقد كان السلطان فى هذه الأيام رجلا مسكيناً ، أثقل عليه الروس من الشمال والأوروبيون من كل جانب وفسد عليه أمره فى دولته وفى أملاكه وسعى لينجو بنفسه ماوجد الى النجاة سبيلا ، كانت تقاليد الأمور للخدم واليونان وللمحظيات حيناً ولكل من هب ودب ممن له مع السلطان صلة أو سر ، كان هذا حال الخليفة بقواته وأمرائه وعلمائه وأملاكه جميعاً، يرفع علم الاسلام بيد ترتعش من الضعف وكاد يصبح الاسلام أيام الدولة العثمانية أثراً وذكرى .

هذه كانت إفريقية يوم أقبلت عليها أوروبا غنيمة باردة فلم تجد عناء فى القسمة ولا مشقة فى الاستعمار ، لم

(١) الشرق الاسلامى فى العصر الحديث للأستاذ حسين مؤنس

يكن يلزم للأمر جيوش ولا قواد أبطال ، وإنما كان يكفى أن يحدد الأقليم على الخريطة ويذهب القوم الى الحدود بأنفسهم ثم يثبتون ذلك فى مؤتمر دولى ! ولم يكن المستعمرون فى بعض الأحيان إلا شرذمة من الجند معهم رصاصهم وبعض المدافع وهذا يكفى لهزيمة قطر بأكمله ، ولم يجد المستعمرون مناوءة صادقة إلا فى طرابلس والحبشة والسودان

فأما أسباب هذا العجز الذى أبداه الشرق أمام الغزاة الأوروبيين فظاهرة لاتحتاج الى توضيح إذلم يكن بد من أن يهزم الفارس الشرقى على ماعرف عنه من الشجاعة والأقدام أمام الفارس الأوروبى ببنادقه ومدافعه ورصاصه على الرغم مما عرف عنه من الجبن والتظاهر الفارغ ، ولم يكن بد من أن تنهزم الأمة الشرقية الجاهلة الجامدة أمام الأمة الفتية التى تعلم الكثير عن نفسها وعن غيرها ، ولم يكن بد من أن ينتصر الملك الديمقراطى الذى يحبه ويطيعه شعبه على الملك الشرقى المستبد الجاهل الذى يحسب سلطانه على رعاياه فرضاً يؤدونه كما تؤدى الصلوات ، لم يكن بد من أن ينتصر القلب الحساس والخيال العميق على

الصوفية المغلقة والذهن القنوع والخيال المتواضع الذى يعيش اليوم كأنه يموت غداً .

بهذا تهدم الشرق الاسلامى وانهار بنيانه الشامخ لأن الجهل والقناعة والكسل دوافع لاتؤسس الدول القوية وإنما تقيمها العاطفة المشبوبة والاحساس الدقيق والفكر المتوقد واليقظة الدائمة والعلم الذى يملأ القلوب نوراً ويجعل الناس درجات ، وإنما يؤسسها العدل والمساواة بين الأفرادوالحب المتبادل بين الحاكم والمحكوم ، وتؤسسها أول ماتؤسسها الوطنية الصحيحة والشعور الصادق بأن تراب الوطن أعز من قلب المواطن . . .



المستكشفون

واستعمار السودان

أقبل الناس على هذا العالم الجديد الذى فتحه الله لهم فى تردد كثير فقد كانت آسيا تيهاً واسعاً يضل فيه الانسان ولا يجرؤ على الوغول فيه إلا المخاطرون ، كانت غاصة بالسكان المحافظين الذين لا يتقبلون الغريب ولا يحبونه وقد يصلون فى تحفظهم إلى حد إعدام هذا الزائر فى كثير من الأحايين ، وكانت إفريقيا مثقلة بحرارتها وأمطارها مزدحمة بغاباتها محوطة بصحاريها ، مملوءة بأقزامها وزنوجها لا تكاد تشعر بالحياة ؛ وكانت أمريكا نهباً مقسماً بين الأوروبيين يقتتل الأنجليز والفرنسيون فى شمالها ويقتتل اللاتين فى جنوبها ولكنها كانت أحسن حالا من القارتين الأخريين فقد كان أهلها متيقظين بعض الشىء .

أقبل الأوروبيون على هذه المجاهل المقفلة مترددين يخافون أن يزجوا بأنفسهم فى هذه المعالم السحيقة والفيافى

التى لا حدود لها : فلم يكن بد من أن يقوم نفر منهم يجازفون فى هذه الأصقاع يستكشفونها وينقلون إلى الناس أخبارها ؛ وبدأت حركة الاستكشاف على هذا الأسلوب .

كان أول دعاة الاكتشاف المبشرون فقد حسبوا المجال متسعاً للتبشير بالمسيحية ونشرها فى بلاد الشرق الواسعة ، ويرجع قيام الرهبان بأمثال هذا العمل إلى الحروب الصليبية التى عرفت الأوروبيين على الشرق وسحره وجذبتهم إلى متاهاته وأصقاعه ، وقام من غير الرهبان نفر من المجازفين المتطلعين إلى كل جديد ، قوم جبلوا على حب الاستطلاع ورغبوا فى المجازفة رغبة شديدة فكانت سياحتهم فى أول الأمر غراماً بالأخطار وميلا إلى الضرب فى مناكب الأرض الواسعة كماركوبولو فى آسيا ولفنجستون فى أفريقيا .

ويهمنا فى هذا الحديث أمر أفريقية وحدها بل النيل فقط إذ أن حركة الاستكشاف فى هذه النواحى اتخذت لونا خاصاً هو لون استعمارى خالص فأن المستكشفين لم يقصدوا بكشفهم ورحلاتهم وجه العلم

ولا خدمة الفن ولا رجاء الأنسانية ورفعتها ولكنهم كانوا دعاة الاستعمار وصنائع المستعمرين ؛ اتخذوا العلم ستاراً وذهبوا يدلون المستعمرين على البلاد التى يمكن استعمارها فأوفدتهم الدول المختلفة يعملون لحسابها فكان لأنجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها جماعة وقفت حياتها على خدمة الاستعمار تنفق عليها هذه الحكومات فكان لفرنسا برازافيل ولألمانيا كرون ولأنجلترا بيكر وجرانت وسبيك وستانلى .

على أن انجلترا فاقت هذه الأمم جميعاً دون أن تتكبد لهذه الرحلات ثمناً ، إذ احتالت على حكومة مصر احتيالا عجيباً فكانت تقنعها بأن لابد خدمة للعلم والفن وخدمة لاسم مصر وحفظاً لكرامتها بين الدول أن تقوم مصر الكريمة السخية ببعث هذه البعوث إلى منابع النيل فى سبيل الكشف على أن تتحمل بكرمها نفقات هؤلاء المكتشفين رجاء الحصول على خير من وراء كشفهم يعود على مصر فيعلى اسمها بين الأمم ؛ وكان هؤلاء المستكشفون يعملون لحساب انجلترا فى الواقع إذ كانت مراسلاتهم الرأسية مع وزارة الخارجية البريطانية .

لم يكن المستكشفون الذين كشفوا النيل إذن قوماً من أهل العلم ولا دعاة للخير وإنما كانوا دعاة الاستعمار كانوا من أهل الباطن الذين يخدمون بلادهم سراً ويستترون خلف العلم ظاهراً ! بل إن بعضهم لم يكن يجرى وراء العلم تماماً فأن استنلى لم يجذبه العلم وحده لاكتشاف منابع النيل ؛ بل جذبه أكثر من العلم المال الوفير والشهرة التى كان يرجوها ويحلم بها ، ولا نزاع كذلك فى أن الكثيرين منهم لم يكن لهم من شرف العلم وجلاله ما يحملنا على احترامه وذكر فضله فقد كانوا مأجورين يأخذون من الحكومة المصرية ما يستحقون وفوق ما يستحقون ثم يأخذون من الحكومات الأنجليزية والفرنسية ثمناً لخيانة مصر ويعملون لهذه الدول وحدها ولا جدال كذلك فى أن ستانلى كان يعمل لحساب الأنجليز وأن بيكر كان انجليزياً صرفاً .

هى غفلة من الحكومة المصرية فى هذه الأيام السوداء ، كان اسماعيل لا يهتم بمن يوليه انجليزياً كان أو مصرياً ، وكان يجهل كل الجهل أن عيون الأنجليز متيقظة تنظر بشغف إلى الغاية البعيدة المرقوبة وكان وزراء اسماعيل

لا يحبون مصر فى أغلبهم ولا يعملون لخيرها أو قل
لا يعنون بخير لحقها أو شر نزل بها ، وكانت
مصر منهوكة هدها الأفلاس وحد نشاطها
الجهل وكلفها حب الظهور مالا تطيق فأصبحت
فريسة فى أيدى الفرنسيين والأنجليز ، ماليتها تحت رقابتهم
وأعمالها تصرف حسبما يشتهون ، فلم يكن من الغريب أن
يغرم قوم بحب الاستكشاف والرغبة فى خدمة مصر
عن هذه الطريق ، ولم يكن من الغريب أن تقنع انجلترا
خديوى مصر بفوائد هذا الاستكشاف حتى يقوم عمالها
من صنائع الأستعمار بتمهيد الطريق للاستعمار الأنجليزى
فى الجنوب ، ولم يكن أحب إلى حكام مصر من هؤلاء
المستكشفين فأغدقوا عليهم النعم وأباحوا لهم الأموال
والألقاب ، واستغل هؤلاء الفرصة الطيبة فخدموا بلادهم
أجل الخدمات ، وانطلقوا يكشفون السودان ويرسلون
نتائج كشفهم إلى وزارة الخارجية الأنجليزية ، وبهذا
قويت أقدام الأنجليز فى السودان بعد مصر ،
واستطاعوا أن يخرجوا المصريين منه ، وقد
رغبوا يوماً ما أن يكون أمر الأخلاء دفعة واحدة .

ولكنهم تنبهوا إلى أن بين البلدين من الروابط ما هو أبعد من هذا الحكم المضطرب الذى هيأته انجلترا بدسها لتفرضه مصر على الجنوب فى ذلك الزمان وإنما هما متصلان روحاً وجسداً فأخذوا يحاولون هذا الفصل شيئاً فشيئاً حتى تم لهم ذلك كما سنرى .



الانجليز والسودان

مهما يكن بيننا وبين الانجليز ، أو مهما كان بيننا وبين الانجليز فان هذا الشعب مثل أعلى لشعوب الأرض طراً هو الشعب الذى أحببت فيه وطنيته وإخلاصه وأكبرت فيه سياسته ودهاءه ، هو أستاذنا من غير شك فى خلقه وطباعه ، وكل ماأرجوه لنا أن نكون له تلاميذموفقين ، نعم تأخذ بعضنا العزة والكرامة ويأبون أن يسيروا على خطى قوم سلبو استقلالنا ، وعدوا على كياننا ، وثاروا بوحدتنا فمزقوها وجعلوا هناك مصر وهناك سودان ، هنا علم وهناك علم ، ولكن حنانيك فان هذه الأفعال الشنيعة لهى آية كفاءتهم وحجة إخلاصهم ووطنيتهم ، لم يستضعفوك بل وجدوك ضعيفاً ، لم يعدوا على استقلالك بل وجدوا حكامك لاغيرة فيهم ولا إخلاص فى قلوبهم فاستلموا منهم الغنيمة باردة ، نعم لم يحترموك لأن القائمين بالأمر فيك لم يحترموك ، ولكنك حين بانت شخصيتك واجتمعت حيويتك بدءوا يردون لك احترامك ويسعفونك بتقديرهم ،

ويطلبون ودك ، ويمدون لك يد التقدير والاعتبار .

إنهم جميعاً أمام بلادهم واحد ، كل فى واحـــد ، يتحدون فى الفكر والغرض والغاية حتى لترى الأمة الانجليزية تصدر عن وحى واحد وفكر واحد وهى فى حقيقةالأمر أفراد جمعهم مزاج مستقرلا يتبدل ولا يتغير، ترى الأمة ممثلة فى برلمانها وصحافتها ، وترى برلمانها ممثلا فى وزرائها وترى وزارتها فى الشؤون الخارجية ممثلة فىوزير الخارجية ، وهذا الأخير له عماله فى الآستانة والقاهرة والخرطوم ... هذه الهيآت العريضة الكثيرة العدد لم تخطىء مرة ، ولم يفارقها التوفيق أو ينزل بها الخلاف إلا لماما . كان جلادستون فى لندن ، وجرانفيل فى الآستانة وإيفلن بارنج (كرومر) فى القاهرة ، كان هؤلاء الثلاثة يتصرفون كأنهم رجل واحد . . وربما شرع بيرنج فى أمر فلا يلبث جلادستون أن يبعث اليه أمراً لينفذه فاذا هو بعينه هذا الذى مضى فيه بيرنج وربما استنكر الوزير والسفيرالأمر فى ساعةواحدة ! فكأنما هذه البلادتجمعهم فتوحد فيهم الفكر والروح والاتجاه كالساعة تتعاون الأجزاء كلها لتنتظم حركة العقارب البادية للعيان .

حبذا هذه الأوطان وحبذا هذه الشعوب ، إن الزمان ليمدلهم فى العمر والبقاء والخلود ، إنهم ليموتون جوعا فى سبيل شرف الوطن وسمعته ، وإن أحدهم لتطلق يده فى أموال لاحصر لها فيأبى السرقة أو تطلق يده فى إدارة أمة فيأبى الرشوة ويرفع يده عنها كارهاً حتى لا يلحق شعبه من سمطته إن سقط عار ، فقد كان فى استطاعة غوردون أن يملأ جيبه ذهباً ثم ينجو من فضيحة الرشوة التى تحلى بها سادتنا الأتراك حكام السودان واحداً بعد واحد ، كان فى استطاعته أن يفعل هذا ليقى نفسه شر الحاجة والعوز ، ولكنه أبى وذهب الى بلاده فقيراً ونزل به الضيق مرة فاضطر الى بيع نيشان من نياشينه الذهبية ليرد عن نفسه غائلة الجوع ! وكان فى وسعه أن يكون غنياً ولكنه رفض لأن الوطن لايريد . . .

عرفت من الفصول السابقة الحركة المعروفة باسم تقسيم إفريقيا ، وعرفت ما أصاب مصر والسودان منها جملة ، ولا بأس من أن نعرض لك ما أوجزناه فى شىء من التفصيل ؛ كان الانجليز يدبرون ويقدرون ليكون لهم شرق إفريقية كله من الشمال إلى الجنوب ؛ وقد

أيقظهم إلى هذا أمران فاما الأول فرجل اسمه سسل رودس، هبط جنوبى إفريقية فقيراً يسعى إلى الكسب لكنه كان قادراً موفقاً فأنشأ للانجليز شمال مستعمرة الكاب مستعمرة عريضة عرفت باسمه يقال لها روديسيا ، واتصل بالحكومة الانجليزية ورسم لها الخطة المثلى كى تستولى على شرق إفريقية جميعاً، وكان حوض النيل كله تابعاً لتركيا فكان هناك أكبر الأمل فى سقوطه بين يدى الانجليز عاجلا أو آجلا ؛ وأما الطرف الجنوبى فقامت فيه أمة البوير الضعيفة ، وفيما خلا ذلك كان الشرق إقليما خالياً يستطيع الانجليز الاستيلاء عليه . رسمت هذه الخطة فى وزارة الخارجية البريطانية ، وراح رجالها ينفذونها بدقة ، فاستولوا على مصر ١٨٨٢ ونصف السودان ١٨٩٩ ثم السودان كله ١٩٢٤ وجنوبى إفريقية ١٩٠٤ بعد حرب البوير .

وأما الأمر الثانى الذى أيقظهم لاحتلال شرق إفريقية كله فهو انحلال تركيا وتوقع تقسيمها من وقت لآخر ؛ وسبيلهم إلى هذا خطة أحكم تدبيرها وتنفيذها فكانت آية من آيات السياسة الدولية ومثلا من الحكمة

التى لا تخطىء ولا تنحرف ، كانوا يعلمون أن تركيا ضعيفة وأن مصر أضعف ؛ وكانوا يعرفون أن بقاء تركيا ضعيفة أو قوية يجعل مصر والسودان وساحل البحر الأحمر حتى نهر جوبا فى أمان من طمع الطامعين ، لأن تركيا كانت جزءاً من أوروبا ضمنت المعاهدات سلامتها منذ معاهدة القرم ١٨٧٧ ففى استطاعة الانجليز إذن أن يطمئنوا على مصر والسودان فالقانون الدولى يمنع أى دولة من التقدم إلى وادى النيل وكان بقاء تركيا وولاياتها ضعيفة يفيدها من ناحية أخرى إذ أنها تستطيع أن تنفذ إلى هذا الهيكل المتداعى متوددة إليه حتى تتسلم زمام أمره وتشرف على شؤونه فى جميع نواحيها ثم تضربه الضربة القاضية وتحقق آمالها ، كانت تعلم أن مصر فى حاجة إلى موظفين ومهندسين وأطباء وولاة فتقدمت بهؤلاء كى يكونوا عيناً لها وساعداً عند الحاجة ، وكانت تعرف أن وزراء مصر ليسوا مصريين ، فيهم التركى والشركسى والبروسى والمتجنس بالجنسية الفرنسية ، فلم تجد مشقة فى الاتصال بهؤلاء وكسب ودهم حتى يسلموا لها زمام الأمور ويصدروا عن مشيئتها

حين تريد ؛ وكانت تعلم أن مصر يحكمها أمير أو تقراطى يخشى وزراؤه بأسه فتعهدت لهؤلاء الوزراء بالسلامة من شر هـذا السيد القلب : ثم رأت إلى اضطراب الأدارة المصرية فى مصر نفسها اضطراب الحكم فى السودان حتى أصبحت مصر شقية بحكمه وأصبح هو شقياً بحكمها فتقدمت تعاونه بالحكام فكانوا على ما ينطوون عليه من الخيانة لمصر خيراً على السودان من حكامه الأتراك الذين هبطوا به إلى الدرك الأدنى ؛ ثم كانوا يعرفون أن سلاطين آل عثمان ووزراءهم يحبون المال حباً جماً فتقدموا إليهم بالمال فى كرم وسخاء ، كان الانجليز يعلمون كل هذا ، ويعرفون كيف يستغلون هذا الضعف ويصلون إلى ما يحبون ويفيدون من هذا الاضطراب جميعه ، ولم تكن هذه المعرفة مقصورة على الوزراء فحسب بل كانت الأمة الانجليزية فى مجموعها تعرف هذا . . . جرأت التيمس فقالت «إن مصر لا تستطيع أن تحكم الدلتا بدون مساعدتنا فكيف تطمع فى حكم السودان».

ولم يفت الانجليز سبيل آخر من سبل الربح فى هذا الحال المضطرب ، فقد كانت حكومة مصر فقيرة وإن

تظاهرت بالغنى ولم تقتر على أحد من المكتشفين أو المدعين العلم بمال أو حماية ما دام هذا يجلب الصيت والشهرة لاسماعيل فى المجامع العلمية وعلى ألسنة الوزراء الانجليز والفرنسيين المرائين الماكرين فأوحوا إلى اسماعيل بأن من واجب حكومته أن تقوم بحركات للاستكشاف والسعى لمعرفة منابع النيل وإيصال حدود مصر إليها ؛ فاطمأن الرجل إلى حديثهم فشمل من المكتشفين نفراً ستعلم من أمرهم شيئاً كثيراً حين أنبئك عنهم ، وكان هؤلاء المكتشفون يقدمون تقاريرهم إلى الحكومة الانجليزية وهيآتها العلمية دون الخديوى الغنى الكريم ، وأدرك الانجليز مجداً عظيما هم وسائحوهم ومكتشفوهم على حساب المصريين ، فأذا اكتشفت بقعة من البقاع أوهموا الحكومة المصرية بأنهم يقدمون للمصريين خيراً ويطلبون من الخديوى أن يسبق فيرفع علمه على الأقاليم المكتشفة حتى لا يطمع فيها طامع من الفرنسيين أو الايطاليين أو الألمان .

على هذه الوتيرة جرى الأنجليز ، وكانوا قد أقاموا فى الآستانة والقاهرة رجلين عظيمين يستطيعان العمل

معاً بدقة ومهارة دون أن يختلفا أو يتدابرا فأقاموا جرانفيل فى الاستانة ونظيراً له فى القاهرة ، الأول لكى يحفظ ود الأتراك ، والثانى ليحفظ ود أصحاب مصر ثم زاد عليهما ثالث فى الخرطوم

على هذا النحو المحكم الدقيق سارت الحكومة الانجليزية فى السبيل التى اختطتها ، وعاونتها الظروف فزاد سلطانها على مصر لحاجة هذه إلى المال واستدانتها من الأجانب واضطراب أمرها وحاجتها إلى من يتولى أمورها وينظم ماليتها حتى لا تثور بولاتها . كانوا يحرصون دائماً على أن تبدو مصر دائماً بمظهر العاجز المضطرب الذى لا يحسن ولاية نفسه أو ممتلكاته : كانوا يحرصون أشد الحرص على أن يكون فى حكومة مصر كل ضعيف عاجز وما من حاكم ماهر أو أدارى حازم قدر له أن يصل إلى الوظائف الرئيسية يوماً إلا عملوا على إقالته وسعوا بالوقيعة بينه وبين السلطان والخديوى حتى يقصى عن العمل ويخلو الجو لهم بعد أن ينحى كل ناصح شفيق أو حاكم مجرب وقد رأيت ما صنعوه بالزبير باشا ، ورأيت أنه هالهم أن يقوم على أملاك

مصر فى أعالى السودان رجل قوى قادر كهذا الرجل الشريف المخلص فوشوا به حتى عزل عن أملاكه ونكلوا بابنه واضطهدوه فى كل مكان فنفوه إلى جبل طارق وطوحوا به فى حرب القرم لكى تعدم مصر خيره وبره ، ولكى يقوم مقامه فى هذه البلاد من العاجزين والمرتشين والطغام ما يفسد أمر مصر فى حكم السودان ويهيء للأنجليز فرصة يدعون فيها أن مصر مضطربة لا تستطيع أن تلى أمرها فى شمالها أو جنوبها ، وأنهم هم وحدهم القادرون على سياسة أمور الناس بالقسط والعدل .

وستعرف بعد قليل ما صنعوه بحاكم آخر أظهر مقدرة فى الأدارة وتنظيم شؤون البلاد حتى استقامت أمور مصر هناك وأصبحت خطتهم بحكمة هذا الرجل مهددة بالخيبة ، وسترى أن هذا الرجل النبيل الكريم المخلص كان بوسعه أن يخمد الثورة المهدية بنفسه وكاد ينجح فى أقناع ولاة الأمور فى مصر بالموافقة على رأيه وإخماد الثورة وهى فى فجرها ، ولكن الأنجليز لم يطيقوا عليه صبراً فأثاروها حرباً على الرجل المسكين فعزل عن السودان وأقاموا بدلا منه ضعيفاً مريضاً عاجزاً يقال له رءوف

باشا سارت الثورة بأدارته الفاسدة سيراً حثيثاً . إنه من المبالغة أن نزعم أن الانجليز دبروا الثورة المهدية وشجوعها لم يفعل الانجليز هذا ، ولكنها كانت نجاحا لخطتهم فوق ما دبروا وقدروا ، فرحبوا بها وهولوا من أمرها وزعموا أنها خطر وأباحوا لأنفسهم نكتة رائعة سموها إخلاء السودان وفتحه من جديد ! !

لهذا الغرض لم يرضهم أمين باشا ولا عبدالقادر باشا(١) ولا أحد من الذين يشتم منهم رائحة الأخلاص والأمانة والنزاهة ، فكرهوا أمين باشا كراهية ستعجب لها حين تقرأ شيئاً عن موضوع إخلاء السودان ، وقد كانت جريمة هذا الرجل أنه أقر سلطان مصر فى خط الاستواء وأذاع فيه الأمن والنظام حتى رحبت القبائل الضاربة هناك بحكم مصر ورجالها ؛ وكانت هـــذه سياسة لا يغفرها الانجليز فسعوا به حتى استقدم الى مصر فى حال يرثى لها.

ولعل محاربتهم للأكفاء تنهض حجة على الخطة التى شرحناها فقد كانوا يسعون للتدخل فى أمور مصر والسودان بشتى الوسائل، فاذا كان الرقيق قائماً فى السودان تحت بصر

---

(١) كان المهدى يفرق من هذا الوالى ويطلب من رجاله أن يدعوا بعد صلاتهم . . . يارب يا قادر اكفنا شر عبد القادر ! !

حكام مصر فقد رأى الأنجليز أن أفضل وسيلة يتدخلون بها فى شؤون بلادنا أن يتخذوا جانب الأنسانية ويعلنوا الحرب على الرقيق حتى يستطيعوا بهذا أن يتدخلوا فى أمور السودان وأن يشرفوا على بعض جهاته مما يشبه سيطرة الفاتح ؛ حاربوا الرق فيه لينقذوا بضعة آلاف فى كل عام ، ولم يتورعوا بعد هذا بقليل من أن يرسلوا النار على المهدى فحصدوا ثلاثة أرباع السكان حصداً ، ثم لم يتورعوا عن أن يرسلوها على البوير فتأكلهم أكلا ...... كانت تجارة الرقيق أمراً تنفيه الأنسانية وتأباه الكرامة البشرية ، هذا فى نظر الناس كلهم ، بيد أنه كان فى نظر الأنجليز سبيلا يمهد لهم طريق استعباد مصر والتدخل فى أمورها .

ولعل دليل هذه السياسة أنهم عملوا على توطيد سلطانهم فى البحر الأحمر واتخاذ نافذة عليه تكون قريبة من السودان حتى يستطيعوا التقدم اليه من أقرب طريق، كانت بيدهم زنجبار وأوغنده على البحر الأحمر فمدوا سكة حديدية من سواكن إلى سنار ولم يمدوها من حلفا إلى دنقلة بل عارضوا فى مدها معارضة شديدة حتى أهملها

اسماعيل بعد أن أنفق فيها زهاء أربعين ألفاً من الجنيهات لكى يقطعوا صلة هذا القطر بمصر ويجعلوا سير الجنود اليه صعباً مرهقاً بينما هم يسهلون أمرهم فى الجنوب لعل سلطانهم عليه لا يحتاج فى يوم من الأيام إلى مساعدة المصريين...... حتى إذا استقر لهم الأمر فى مصر وبدءوا يسترجعون السودان أخذوا إقراراً بأن لهم حق مناصفة حكمه ووافقوا على مد السكة الحديدية فمدت بأموال مصر وعمالها وسار فيها كتشنر على رأس جيش البلاد لفتح السودان والقضاء على الثورة المهدية.

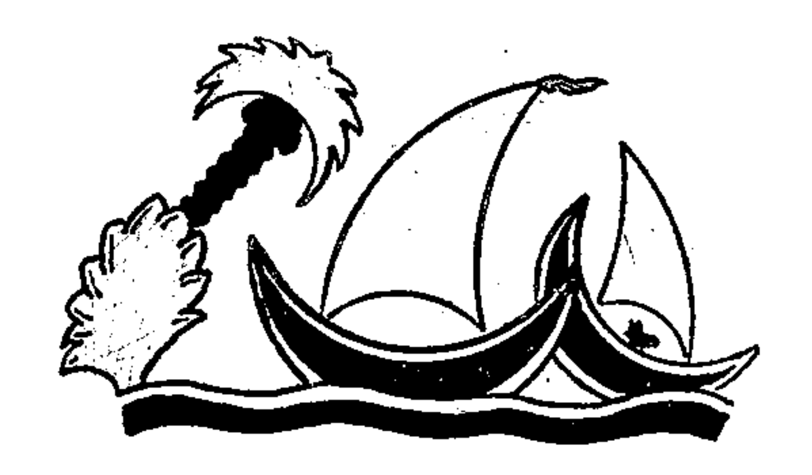
على هذا السبيل قضى الانجليز وأحكموا اسيرهم، كانوا يعلمون أن مصير مصر اليهم فسعوا فى توسيع سلطانها ونشر لوائه ولكن أى سلطان؟ هو سلطان العاجز ولواء المتهدم، ترفع علم مصر على جوبا حتى لا تطمع فيها إيطاليا وتنشره على أعالى النيل حتى بحر الغزال كى لا تطمع فيها بلجيكا أو فرنسا، ثم تضع على السودان وأقاليمه كل حاكم عاجز حتى يضطرب هذا الملك الشاسع ويصبح فى حاجة إلى عون الأنجليز؛ ثم يزينون لصاحب مصر فضل الاكتشاف مرة وفضل التجديد والانشاء مرة أخرى

فيقترض المال وينفق على الجيوش ويقيم دعائم ملكه على لون من الترف والانشاء حتى تصبح مصر جزءاً من أوروبا ، ! وتفتح له انجلترا خزانتها ومصارفها لتمهد سبل الاشراف على ماليته والتحكم فى شؤون رعيته ، تقرضه كما يشاء بفوائد باهظة ، حتى توقفت المصارف عن اقراضه فى بعض الأحيان فكان يضطر إلى رشوتها لتقرضه من جديد ، وكانت الرشوة تصل فى بعض الاحيان إلى مقدار القرض نفسه !

هذا فى مصر نفسها، وليس أمر مصر وقفاً عليها بل هى تخضع للاتراك لذلك اتجه الأنجليز إلى الاتراك أيضاً ليضمنوا بسياستهم رضاهم عن كل ما يفعلون فى مصر والسودان؛ سعت انجلترا فى التقرب من السلطان حتى تلم بضعفه وتتأكد من انحلاله يوما فيوما وتوعز اليه بعزل الحكام المخلصين أو القادرين عن شؤون مصر أمثال عرابى وشريف والبارودى ووضع المرنين المغمورين كنوبار ورياض ، وتتقرب من ناحية أخرى إلى وزراء السلطان وصدوره العظام . كل هذا كان لغرض واحد ساروا اليه بدقة وحزم حتى تم لهم النصر على السلطان والخديوى كما

ينتصر الكفء القادر على الطفل المواتى ، فاستولوا على مصر والسودان جملة حتى يتحقق حلم رودس ، وحتى يفيض هذا اللون الأحمر الذى يشبه الدم فيغمر شرق إفريقية من الشمال إلى الجنوب ويتم بذلك خط الكاب ......

أرأيت؟...



نهضة السودان

وثورة المهدى

لا يقيم الظلم وحده ثورة ، وإنما الذى يقيمها هو الشعور بالظلم ، والشعور بالظلم عند الشعوب أول درجات كمالها ، فلو ان المظلوم شعر بالظلم حقاً وأحس به إحساساً صادقا لأبى على الظالم عدوانه واحتج وعارض ولجأ إلى الثورة وهى غاية المظلوم لحفظ كيانه ، والشعور بالظلم هو الشعور بكرامة النفس وتقديرها ، والنفس كريمة مالم تظلمها وتخدشها ، عظيمة مالم تهونها وتهوى بها ، والمظلوم إذا أحس الظلم عرف أن له حقاً يمكن المطالبة به وبدأ يفرق بين أن يحكم نفسه بنفسه أو يحكمه غيره جائراً عليه ظالماً له ، كذلك يدفعه الشعور بالظلم إلى أن يناجز خصمه ويرده عن حقه ويفوز عليه ، وهذه كلها شروط ينبغى أن تتوفر حتى تقوم للثورة قائمة ، لا تكفى المسببات الظاهرية التى يرد الناس اليها قيام الثورات وإنما لابد أن

تتمثل هذه الأسباب جميعاً حتى تستحيل إلى هذا الشعور الذى حدثتك عنه ، فأذا ثار اليوم قوم ولم يثوروا أمس فذلك لأنهم أحسوا اليوم ولم يحسوا أمس مع وجود الظلم فى الأمس واليوم ، ومعنى ذلك كله أن الظلم يحمل الى نفوسهم شيئاً من الحياة والانتعاش الذى يمهد الطريق للاحساس الكامل ، وليس كل ظلم يحمل معه انتعاشاً فقد يهبط الظالمون بأرض فيخنقون أهلها خنقاً فلا يرتفع صوت ولا يعارض إنسان على شدة مايصبه الظالمون على المظلومين كحكم الرومان أو حكم الأتراك وهذا مثال مقطوع النظير فى التاريخ وقد يهبط فاتح بأرض فلا يكاد يستقربها حتى ينهض المظلوم يطالبه بحقه كما هبط الفرنسيون ألمانيا أو المصريون السودان ، فكل شعب أحس الظلم وثار عليه هو شعب له من شاعريته وإحساسه مايفرض علينا تقديره واحترامه .

بمثل هذا نستطيع أن نعبر عن الحكم المصرى فى السودان ، فان جنود مصر حملوا إلى السودان تيارات الفكر وبشائر النهضة التى شملت مصر فى ذلك الحين ، لذلك لم يثر السودان فى أول الأمر لأن مصر فيه ليست

غريبة عنه أو حديثة عهد به كما أنها حين نزلته رفعت عنه أثقال حكامه وملوكه الطغاة ، فاستراح من الظلم حيناً ، ثم بدأ الحال يتغير رويداً ثم حثيثاً بهذه العوامل الكثيرة المتباينة التى أذاعت فى السودانيين روح السخط ، وملأت نفوسهم ضيقاً وتبرماً ، ودفعتهم إلى الثورة فى قوة وعنف .

أما أسباب الثورة الظاهرية فكثيرة يحسن بنا أن نجمل الحديث عنها إجمالا ونستطرد لنعرف نتائجها ونتقصى آثارها فى هذا البلد العزيز ، ونحب أن نلاحظ مع القارىء أن حكام الأتراك يحملون أكثر التبعة بل التبعة كلها ، فلولم يرزأ السودان بحكام كالدفتردار وحسن بك سلامه وغيرهما لما وجدت ثورة المهدى هذه الاستجابة السريعة التى بعثتها ناراً فى مثل لمح البصر ، والمعروف المتوارد أن الجعليين كانوا أشد أنصار المهدى لأن الدفتردار كان قد نكل بهم وأذلهم وسبى نساءهم حتى أوجعهم فانطووا على أنفسهم وتربصوا بالحكم المصرى الدوائر ، ولهؤلاء الولاة شر آخر هو الأفراط فى جمع الأموال وامتصاص دم الرعية ، ولم يكن هؤلاء الولاة يكتفون بما هم موكلون بجمعه من المال المقدر وإنما كانوا يفرضون لأنفسهم

ضرائب أخرى قد تزيد على مال الحكومة نفسها ، وقد كان من أثر هــذا أن هجر الناس بلادهم واعتصموا فى الجنوب فى القلابات وبحر الغزال ودارفور وما إلى هذه الأصقاع البعيدة ولعل هذا هو السر فى إصرار الولاة على فتح هذه البلاد وضمها الى نفوذهم .

وللولاة الأتراك فى ظلم الناس حيل تبعث الألم فى النفس وتدعو الانسان إلى أن يشعر بأن المهدى لم يرتكب إثماً حين ثار ، وما يجرم المرء حين يرفع رأسه يأبى الظلم ويرضى الموت من دونه فقد اهتدى حاكم تركى إلى طريقة توفر عليه جهداً عظيما فى عقاب الناس فكان يضع فى ثياب الرجل هراً ثم ينهال ضرباً على القط فيفتك الهر بلحم الرجل نهشاً وخدشاً . . . . إلى هذا لم يكن هناك عدل فى تقدير الضرائب فقد ثقلت وطأتها على الفقراء وخفت حتى انعدمت على الأغنياء .

ومن هذه الأسباب منع الرقيق فقد كان مورداً فياضاً لربح التجار من الشماليين أو الأخلاط بين العرب والسودانيين ، كانت وطأة الرقيق ثقيلة على قبائل السود فى الجنوب فأحس العرب بما أصابهم من

الخسارة بهذا المنع ، ورحب الرقيق بأعتاقهم وطفقوا يتركون سادتهم بغير سبب ، ثم كان بعض هؤلاء السادة يؤدون كثيراً من الضرائب رقيقاً فأذا انعدم هذا المورد لم يجدوا ما يدفعونه من المال والمحاصيل وثقلت عليهم يد الجابى وودوا لو ترفع عنهم ، ولعلهم حسبوا أن للأمر علاقة بالدين رأوا أن الذين ينفذون هذا القانون من الفرنجة أو النصارى على حد تعبير السودانيين من أمثال غوردون وبيكر .

ولم يكن أهل السودان سواء فى الظلم النازل بهم بل خلص عرب الشايقية منه لأن الفاتحين رأوا فيهم استعداداً للعمل فى الجيش وقدرة على المعاونة فى أمور الحكم فأعفوهم من الضرائب ورفعوهم فوق عامة السودانيين درجات فثقل هذا على الجعليين ورغبوا فى الخلاص منه .

وللمسألة بعد هذا وجه آخر لا يحسن أن نغفل عنه هو امتزاج المهدية بالفكرة الدينية وادعاء زعيمها محمد احمد دعوة المهدية ، وهذه دعوة قلما كان يعوزها الأنصار بين الزنوج والمغاربة والأعاجم الذين أدركوا الأسلام وآمنوا به على جهل بأصوله وطبيعته فجازت عليهم وآمنوا

بها على رغم ما كان يبدو على مهدى السودان من زيف وقلة اقتدار فى أمور الدين وميل إلى الهمجية والفوضى فى أمور الدنيا .

فأذا قامت الثورة لم تجد ما يصدها أو يعوق تقدمها ، لم تهتم لها الحكومة فى أول الأمر ، حسبتها فورة عاجلة لا تلبث أن تخمد من نفسها أو حين يوجه إليها نفر من الجنود ، فأذا اشتدت وقامت وأحست بضرورة إرسال قوة كبيرة إليها لم تجد ما يكفى وخاصة حين انتصر المهدى على بضعة قليلة من الشراذم وجهت إليه فقضى عليها قضاء مبرماً ، تشجع هو وسكن الخوف منه قلوب الناس فزاد أتباعه قوة وزاد أعداؤه ضعفاً ، كان فى السودان كله نحو ثلاثين ألفاً من الجنود بين مصريين وباشبوزق وأتراك وجعليين مفرقين بين دنقله وبربر وسنار والقلابات والغضارف وكسلا وهرر وكردفان وبحر الغزال ، منثورين فى هذه البطاح الشاسعة فسهل القضاء عليها واحدة واحدة . . . . ولم تستطع حكومة مصر إرسال نجدات جديدة لأنها كانت فى شغل بثورة عرابى التى اشتعلت فى هذا الوقت تماماً .

من الحق أن نقرر أن محمداً أحمد لم يكن رجلا عاديا بل كان ممتازاً فى شخصيته وثقافته واتساع ذهنه وقدرته على العمل المنتج الصحيح ، فقد تصوف فى بدء شبابه وأكب على درس الدين وانقطع له حتى كان يبكى فى الصلاة !.. وينصت ذاهلا إلى شيخه وهو يلقى عليه الدرس ثم أنشأ لنفسه طريقة خاصة فأقبل عليه الناس وصار له أتباع ومريدون فانصرف ذهنه إلى ماحوله وأحس عسف ولاة الأتراك وفكر فى أن يكون له سلطان يناوئهم ويردهم الى حدودهم أو يخلص منهم جملة ولعل تلك إحدى طبائع الاسلام حين يتأصل فى النفس الزكية العزيزة فيشعرها بحقها ويدفعها إلى رفض الظلم وإنكاره ؛ وكان محمد أحمد يطوف بقومه ناطحاً واعظاً فأقبل عليه الناس يشكون اليه جور الحكام ويرجون أن يدعو الله لخلاصهم فكان يعدهم بهذا فيدخلون فى طريقته ؛ وعظم قدره فى نفوسهم ورجوا الخلاص على يديه، وتهامس البعض بأنه المنقذ الذى سيملأ الدنيا نوراً وعدلا بعد أن ملئت ظلاماً وجوراً أى أنه المهدى المنتظر ...

وترددت هذه الدعوى على ألسن الاتباع حتى وصلت إلى مسامع محمد احمد فلم ير ضيراً عليه فى تصديقها والدعوة إليها ، ثم كان أن أقبل عليه رجل اسمه عبد الله التعايشى من البقارة فما أن رآه حتى أغمى عليه مرتين ثم تقدم إلى محمد أحمد حبواً على الأرض والدمع يترقرق فى عينيه ثم قبل يده وقال له إنه المهدى المنتظر شكلا وهيأة وأن أباه تحدث اليه فى أمر المهدى ووعده بأن يكون وزيره فقبل المهدى مبايعته له واتخذه وزيراً، ثم أخذ تلاميذه وأتباعه وخرج بهم يدعو إلى الزهد والدين والتقشف وأشاع فى الناس أن الله اصطفاه لهدايتهم فآمن به خلق كثير ، وكأنما قـــدر أن الحكومة ستعارضه فى دعوته فوجه همه الى اختيار مكان حصين وقوم أقوياء يصلحون لحمايته والذود عن دعوته فاستقر رأيه على مكان يقال له جبل قدير فنزله ثم شرع يرسل كتباً تحمل دعوته الى القبائل وذوى السلطان من أهل السودان فآمن به نفر عزيز ، وترددت فى كتبه دعوى المهديه ودلائل نبوته فزعم أن رسول الله « صلعم » يتردد عليه يقظان ونائماً ، وأنه أوحى إليه بمهديته وأكد له أن الله ناصره وآخذ بيده وأوصاه

بستة أمور « الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتقان القول » ثم أضاف اليها أربعة هى « قلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات » فاكتملت أسس شريعته عشرة لاينكر أحد أن بعضها سبيل لكل رفعة وكل خير وأن الشرق لوسار عليها لكان حاله غير هذه الحال ؛ وهى تدل دلالة صادقة على أن المهدى لم يكن أفاقا ولافارغاوإنما كان رجلا قادراً حازماً بل لعله كان أحزم المسلمين فى ذلك الزمان ، ولعله يفوق سلطان آل عثمان نفسه تديناً وحزماً وصدق بصيرة .ولعله كان ينجو من هذه الخاتمة المحزنة لو لم يقدر له الزمان أن يبعث أيام المدافع والنيران .

لاغرابة أن يتحول المهدى الى السياسة وتتوجه دعوته إلى إنقاذ الوطن السودانى لا إنقاذ المسلمين كافة ، لأنه لم يكن هناك سبيل الى نشر سلطانه الروحى على الناس جميعاً خارج بلاده ، كان لابد حين تحول الى السياسة أن يصطدم بالحكومة التى هبطت بمواطنيه الى الحضيض ، لم يبدأها هو بالعداوة بل بدأته هى فتحرشت به وأعلنت سخطها عليه وتبرمها بحركته ؛ وكان المهدى يشعر بيد الحكومة

ثقيلة على السودان وأهله وهو لا يستطيع أن يغلق أذنيه دون هذا الصراخ المنبعث من المظلومين الذين خربت ديارهم وأشرفت حالهم على اليأس والهلاك ، وقد لقيت دعوته سخرية رجال الدين الاسلامى الرسميين كعلماء القسطنطينية ومصر ، ولقى فى سخريتهم عداء صريحاً فوصموا دعوته بالكذب وحذروا الناس منها ، فأحس الرجل صراحة الحرب يشهرونها عليه فى غير تردد ولا إبطاء فاستعد لها وتوالت رسله الى أصحابه وأتباعه لكى تتثبت من إخلاصهم للدعوة وإيمانهم بها ؛ فلقى منهم عضداً قوياً وعوناً ثابتاً فقد بايعوه على الموت ، فبلغ من اعتداده بنفسه بعد ذلك أن أرسل إلى رءوف باشا حكمدار الخرطوم ينصحه بالدخول فى دعوته !

بدأت الحكومة تسير اليه الحملات ، وكانت القوى التى ترسل اليه ضعيفة مفككة أكثرها من الأتراك والجعليين ، وكانوا يشعرون بأنهم مسوقون إلى قتال لا رجاء منه ولا خير فيه ، ولعل دعوة المهدى أثرت فى نفوسهم فخشوا قتاله ورسول الله يحبه ويظهر له الآن بعد الآن ! وكان أنصار المهدى أقوياء شجعاناً شديدى الايمان بحقهم

قد بايعوا صاحبهم على الحياة والموت، وكانوا كلما تذكروا ظلم الحكومة تأججت العداوة فى صدورهم واستطاع المهدى أن يبيد حملتين أرسلتا اليه فذاع صيته وشاع ذكره وعظمت هيبته فى نفوس مواطنيه وزعم الناس أن الرصاص لا يؤثر فيه وأن بركته تحوله ماء ! وأن سيوفه بتارة شديدة الفعل.

كانت هيبة الحكومة إلى هذا الوقت قوية فبدأت تتزعزع وتقل سطوتها وأخذت القبائل تخرج عن طاعتها وتعلن عصيانها عليها حتى عمت روح الاستياء والفوضى جميع السودان ، واستقرت هيبة المهدى فى الصدور حتى زعم الناس أنهم رءوا اسمه مكتوباً على ورق الشجر وبيض الطيور مما دعا مواطنيه الى الدخول فى دعوته من كل صوب وحدب فأقبلوا عليه من سنار وكردفان ودارفور.

هنا أدركت الحكومة أن هذا الرجل ليس شيئاً هيناً وأن حركته تحتاج منها الى العناية الشديدة والجهد العنيف؛ وكانت كتبه ورسائله تنشر فى كل مكان فاطلع عليها العلماء الرسميون فحرضوا الحكومة على حربه والانتقام منه ، وكانت منشوراته قوية اللهجة؛ شديدة العبارة فى صيغة أدبية لا بأس بها مما يدعونا الى الاعتقاد بأن كان فى ركابه نفر من

الأزهريين وتومىء هذه الكتب والمنشورات الى شعور بالقوة واعتزاز بالنفس واستخفاف بالحكومة وجيوشها.

أسرعت الحكومة فعزلت رءوف باشا حاكم السودان وأقامت مكانه رجلا آخر اشتهر بالقدرة والحزم ، وكان فى مقدوره أن يقمع حركة المهدية لو ان السياسة الأنجليزية لم تتدخل لأقالته وإعادة الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه . وكان المهدى قد رتب أموره ونظم قبائله وجنوده وأقام لنفسه أربعة خلفاء هم عبد الله التعايشى واثنين آخرين وعرض كرسى الخلافة الرابع على محمد السنوسى شيخ السنوسية ولكنه أبى فظل شاغراً . . . وفى هـــذا دلالة على دهاء الرجل وعمق حيلته فهو يرجو السنوسى ليظفر بعطف كثير من المسلمين ، ويعرض بقية الكراسى على قواده ليستجلب رضاهم بهذه المناصب التى لاتخلو من فكاهة ، إذ كيف يوجد خلفاء أربعة مع الرسول فى آن واحد ؟ اللهم إلا أن يكون قد توقع الموت لنفسة ولخلفائه واحداً بعد واحد حتى يصبحوا أربعة، ولم يكن ينقصه إلا أن يعين نفراً من أتباعه ليكونوا الأمويين بعد مقتل خليفته الرابع من خلفائه الراشدين ! ! . . .

قامت الثورات فى كل مكان وارتدت جيوش الحكومة وانحصرت فى أماكن متفرقة ، وتقدمت الثورة حتى شارفت على الخرطوم وتوقع أهلها أن يدخل عليهم الدراويش فباتوا يساورهم الخوف فكان أول عمل قام به عبد القادر باشا هو تحصين الخرطوم اتقاء للطوارىء

اتجه المهدى بقواته إلى كردفان ودارفور ليتخذ هذه الجهة الشرقية مقاماً له ومركزاً يناوىء به الحكومة ويحتمى فيه ، ولسنا نعتقد أنه كان يعنى كثيراً بالاستيلاء على الخرطوم أو على السودان جميعه ، لأن الخرطوم لم تكن المدينة التى يطمع فيها ولم يكن من صالح المهدى أن يتخذها عاصمة له ، ثم إنه كان يخشى الحكومة وجنودها ولا يجسر على مهاجمتها فى عاصمتها وخاصة بعد أن أقيم عليها عبد القادر باشا وهو رجل قاس عنيف استطاع أن يقف الثورة فى سنار وفى كل الجزيرة وشرقى النيل ، فأخذ المهدى يفكر فى أماكن أخرى ليتحصن فيها فلم يجد أفضل من الأبيض مكاناً يأوى إليه بجنوده

كان حصار الأبيض من المشاهد الرائعة التى لا تنسى فى تاريخ مصر والسودان ، فأن حامية هذه المدينة قضى

عليها بالتسليم لأن مواصلاتها مع الخرطوم مقطوعة لقيام المهدية فى الطريق فلا سبيل إلى إنقاذها إلا بأبادة المهدية كلها ، وكان هذا أمراً عسيراً فى تلك الأيام . كان السبيل إليها عن طريق سنار وهذا على بعده غير مأمون الروحات وهو غير ميسور على أية حال .

وللسودان ميزة عظيمة انتفعت بهـا المهدية أعظم انتفاع ، هو امتداد أصقاعه على غير حد وقحولة أرضه فى لون مخيف وكثرة صحاريه وحزونة مجاهله الشاسعة ، فهو فيما خلا الشريطين المحاذيين للنيل صحراء واسعة تنجم فيها الواحات عند نبع ماء أو مسرى نهير أو مهبط أمطار ، فبين العمران والعمران نجد صحراء واسعة يشق على الانسان عبرها فى سهولة ومن غير عناء ، فلكى تنفذ من مصر إلى الخرطوم لا بد أن تحمل طعامك وشرابك الذى يكفيك فى عبور صحراء النوبة التى يسمونهـا العطمور أو عطمور أبو حمد ، وهى رمال تمتد على جانبى الناظر حتى تجتمع بالسماء ، هى متاهة متشابهة الشكل والموضوع تصاحبك حتى تصل الخرطوم ، فأذا رغبت

فى الوصول إلى مركز العمران الثانى فى كردفان كان لا بد من أن تعبر صحراء شاسعة لا تقل وعورة وحزونة عن العطمور ؛ وإذا تطلعت إلى دارفور عدت إلى الصحراء مرة ثالثة وهكذا فى اتجاهك نحو كسلا أو مسيرك إلى أعالى النيل حول غندكرو .

فهذه الصحارى والغابات والقفار والجبال حصون طبيعية قيضها الله لهذا البلد فهى تعين أهله على الغاصب وتحول من ناحية أخرى دون أن يكون هـذا القطر وحدة واحدة ؛ ولهذا رأيت دولة فى دارفور ودولة فى كردفان وأخرى فى سنار ، وقبائل شتى منعزلة عن العالم تماماً تعيش فى السوباط وأعالى النيل ؛ هذه الصحارى نفسها كانت تحارب إلى جانب المهدى فتنصره نصراً عظيما ، فأن الجيش المصرى كان يرسل من القاهرة قوياً عزيزاً حتى إذا سلك العطمور خارت قوى جنده وهبطت عزائمهم فيصلون إلى الخرطوم نصف منهزمين ، ثم يتوجهون إلى كردفان وتحتويهم الصحراء وتعلن عليهم حربها قاسية فيصلون إليها أشلاء أو كالأشلاء وهناك يستقبلهم المهدى ويودعهم إلى الموت حيث لا رجعة ولا عتاب .

هذه حقيقة لا يجب أن نغفلها من حسابنا ما دمنا نريد فهم تطورات المهدية الفهم الصحيح ، فكما أن أرض روسيا هزمت شارل الثانى عشر ونابليون فكذلك هزمت أرض السودان جيوش مصر وما فيها من فلول الانجليز ، وليس معنى هذا أن السودانيين لم يكونوا أهل شجاعة واستبسال بل الحق إنهم من أبسل الأمم الاسلامية إن لم يكونوا أبسلها جميعاً ، وما قولك فى قوم كان سلاحهم السيف وسلاح أعدائهم المدافع وهم بعد منتصرون ؟ وما قولك فى المهدى تصيبه رصاصة فى كتفه ويتفجر الدم منها فيطرح عليها ثوبه ويمضى فى القتال حتى لا يرى أنصاره جرحه فتخور عزائمهم ، وما بالك فى رجل يهجم على المدفع حتى يصل إليه ولا يزال يضربه بسيفه حتى يعطله والرصاص ينهال عليه ؟

هذه عناصر لا ينبغى أن نهملها إذا أردنا أن ندرس الثورة المهدية على ضوء الحقائق الصريحة ، وإلى جانب ذلك لا يجب أن ننسى أن السودانيين كانوا فى جهل تام بقوى عدوهم بحيث استضعفوه فى قوتهم وهجموا عليه هجوماً عنيفاً دون ترتيب معروف ولا خطة منظمة

فأدركهم التوفيق من حيث لا يحتسبونه؛ لو ان هؤلاء القوم قدروا فى ثورتهم أن الحكومة ستواجههم بعنف مهما ضعفت قوتها وتغالبهم هذا الغلاب الطويل حتى يفنى منهم هـــذا العدد العظيم لترددوا بعض الشيء واقتصدوا فى هذا الاتساع الذى دفعوا إليه دفعاً .

يعنينا بعد هذا أن نمر سراعاً على حوادث الثورة المهدية، فقد توجهت همة المهدى بعد انتصاراته الصغيرة الى زعامة السودان، بل لعل الظروف هى التى أملت عليه موقفه الجديد موقف المحامى عن السودانيين والآخذ بثأرهم والمعيد كرامتهم ، فأن السودان كله بأقطاره الأربعة كان يشكو الظلم ويرجو الخلاص فما كادوا يتسامعون بنصر المهدى وانخذال الحكومة أمامه حتى هب الجميع إلى صف هذا السودانى المقدس الذى استطاع أن يهزم الجنود المصرية ويحيل الرصاص ماء ! والذى يزوره النبى فى النوم واليقظة ! والذى ينوى أن يملأ الدنيا عدلا بعد أن ازدحمت بالظلم والعدوان ، فانهالت عليه الشكاوى وجد فى طلب عدله كل الناس ، وراسله كبار القوم يطلبون إليه أن يسرع لأنقاذهم ، وأعلن الكثيرون منهم راية

العصيان فى وجه الحكومة القائمة بالأمر ، بل إن الجعليين هبوا هبة واحدة ليأخذوا بثأرهم من مظالم الدفتردار ، ولم تعدم الثورة أنصاراً حتى بين القبائل الموالية للحكومة وذلك لأن دعوى الدين كانت قوية ساحرة لم ينج من سلطانها أحد فى السودان ، وقد كان المهدى على نصيب وافر من الذكاء والقدرة بحيث استطاع أن يلهب عواطف مواطنيه حتى هتفوا باسمه جميعاً

أراد المهدى أن يوحد كل هذه الجهات التى قامت بها الثورة فبث رسلا من عنده ليأخذوا له بيعة القوم جميعاً ، فبايعه القدر الأكبر من السكان ، وبقى عليه أن يسير بجموعه نحو هذه الأقطار ليفتحها ويقضى على الجيوش المصرية الباقية فيها

توجه المهدى بقواته إلى كردفان فقد دبر أن يستقل بهذا الجزء أولا وينشر عليه سلطانه ثم يتحصن فيه ، وكانت كردفان ضعيفة الحامية ليست بها فرقة أو فرقتان من الجيش المصرى يقودها رجل اسمه سعيد باشا ومعه نفر من الضباط وكانت حالة الجند النفسية ضعيفة بعد هزائم إخوانهم فى الشمال وقد أقبل عليهم المهدى بعد

هزيمة اقرانهم فى هذا الشمال ، وكان جنوبهم محوطاً بالأعداء فلم يروا بداً من التسليم وحاصر المهدى وأنصاره - المدينة وقطعوا عليها كل سبيل حتى أصبح تسليمها أمراً واقعاً ، وزاد الطين بلة أن الجعليين تواطئوا مع المهدى وأرسلوا إليه رسلهم يعلنون له تأييدهم وتسليم المدينة ووقوفهم بجانبه ضد حاميتها ، ولبث الجنود المصريون يلتمسون المعونة والمدد فلم تأتهم المعونة ولم يرسل إليهم المدد ، ووصل المهديون إلى المدينة بعد صراع عنيف مع الصحراء جياعا أو كالجياع كعادتهم فى كل واقعة من الوقائع حتى إذا بلغوا مدينة من المدن أتوا على ما فيها حتى كان بعضهم يموت من الأسراف فى الطعام .

وكان مسيرهم هـذه المرة فى رمضان فكان العبء عليهم ثقيلا ولـكنهم احتملوه فى صبر وجلد فلما سلمت إليهم الأبيض بعد معارضة يسيرة من سعيد باشا لزملائه الضباط ، دخلها المهدى فأحسن إلى ضباط الحاميـة وأكرمهم ، وبايعوه وخلعوا ثيابهم مرغمين واتخذوا جبب المهدية بديلا عنها ، ولـكنهم استمروا يطلبون العون سراً حتى كشف أمرهم فأمر بهم المهدى فقتلوا جميعاً

واكتفى المهدى بهذا التوفيق وأرجأ فتح سنار إلى حين يجد من نفسه القدرة على ذلك ، ولا شك أنه كان يخشى الحكومة وقواتها ، وكان يمنى نفسه بأهمالها له كما صمم على ألا يحتك بها .

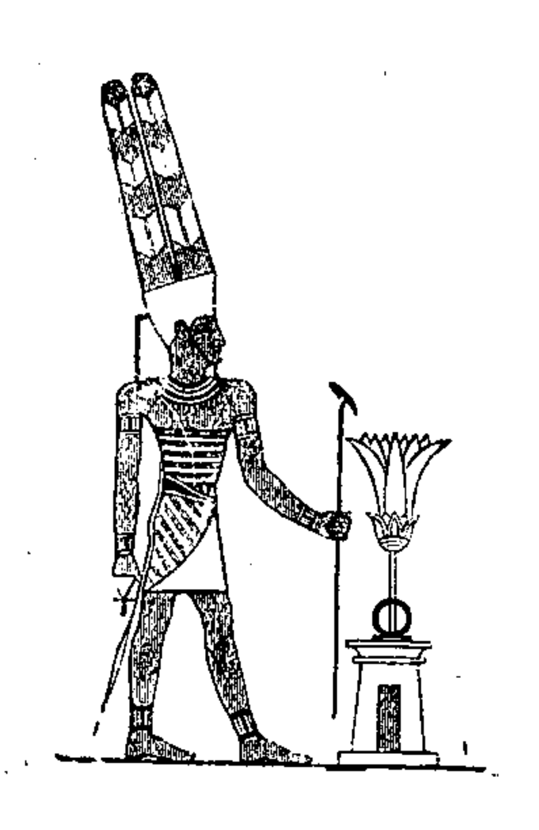
أيقنت الحكومة المصرية أن الأمر يستدعى أكثر من هذه العناية البسيطة التى لم تفد حتى الآن ، استبان لها عجز رءوف باشا فعزلته وأقامت بدلا منه رجلا قادراً عرف بالكفاءة والحزم ، وكان قديراً يستطيع أن يحل هذا المشكل الذى كاد يستعصى أمره فأذا وصل إلى الخرطوم فقد حصنها وأمنها حتى استقر أهلها وكان القلق يساورهم فى الليل والنهار ، ثم بعث بقائد من قواده فضرب سنار وقضى على حاكمها الذى أقامه عليها المهدى فعاد الأمر إلى المصريين وهدأ الأمن واستقرت الأحوال ، وكان حاكم السودان الجديد رجلا جسوراً صبوراً حتى لقد شبه بعضهم الثورة بثعبان طويل وأن ضرباته تصيب الجسد ولا تصيب الرأس فقال « لا أزال أقطع فى الجسد حتى آتى على الرأس »

هنالك أدركت الحكومة البريطانية ما يجب أن تفعله ؛

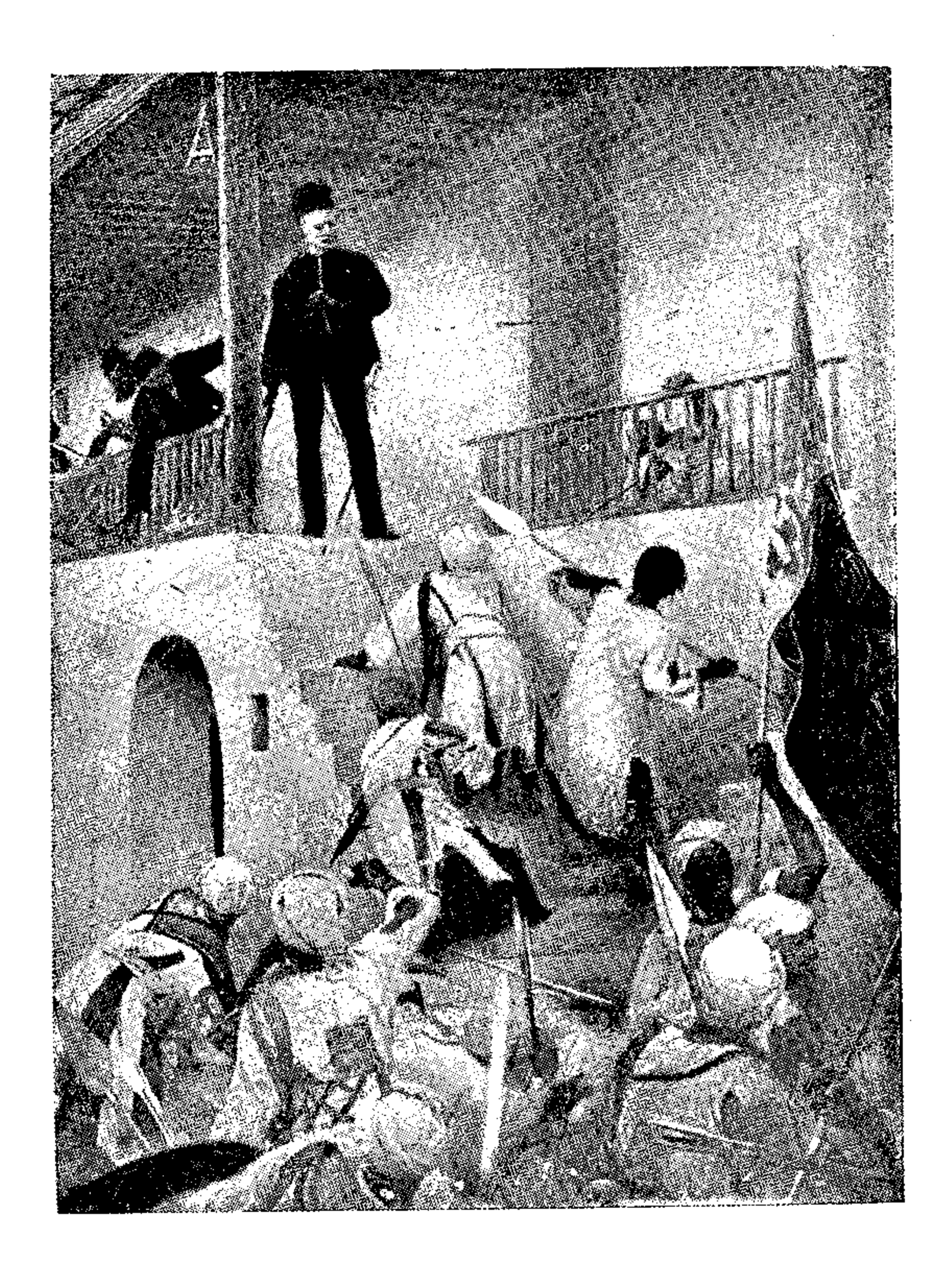
لاحت لها الثمرة فلم تهمل اقتطافها ... وهل يخطىء الأنجليز وجه الصواب فى هذه الأمور ؟ هل يتوانى الأنجليز فى هذه اللحظات الرهيبة التى تسنح لهم فلا تفلت منهم ؟ حقاً إن الأنجليز لم يدبروا الثورة المهدية ولم يعملوا لها بيد أنهم رحبوا بها وعرفوا أنها فى صالحهم ، فهى تظهر عجز مصر وعدم اقتدارها على إقامة حكمها صالحاً فى هذه البلاد ، وهى تعطيها لذلك فرصة طيبة تتدخل فيها ، وكانت انجلترا قد دخلت مصر قبل ذلك وقضت على الثورة العرابية ، وقد هالها أن يتمكن عبد القادر باشا من إعادة الأمور إلى نصابها وتخوفت أن يعود الأمر فيستقر لمصر فى السودان ؟ نعم إنها كانت تستطيع أن تنال السودان بالحرب كما أخذت مصر ولكنها حريصة على أموالها وبنيها فقد عرفت أن فى مقدورها يوماً ما بعد أن تخلى مصر السودان أن تستخدم مال مصر وجنودها وكل ماملكت يمينها فى هذا العمل ، وما عليها لتنفيذ هذا إلا أن تشير على المصريين بالخطة وعليهم هم تنفيذ المشورة .

هذه السياسة الجديدة القديمة التى قررها الانجليز وبدءوا يسعون فى تنفيذها هى إخلاء السودان وإعادة

فتحه من جديد ؛ وتمهيداً لهذا أحبوا أن تستعر الثورة فى
السودان أشد مما كانت عليه فأوعزوا إلى آلاتهم من
المصريين بدعوة بطل مصر عبد القادر باشا من السودان،
كما أساءوا الى الزبير من قبل وحرموه الرجوع الى موطنه
فى أيام الثورة ليقف بجانب عبد القادر ، وكان فى وسع
هذين الرجلين وحدهما قتل الثورة مهما عظم قدرها







مقتل غوردون باشا

اخلاء السودان

إلى هنا استطاع الانجليز أن يظهروا الحكومة المصرية بمظهر العاجز الذى لا يستطيع أن يتولى أمور السودان، ونشطت إنجلترا من جانبها نشاطاً كبيراً فى إذاعة أخبار الثورة المهدية والمبالغة فيها حتى زعموا أنها تهدد حدود مصر والمواصلات البريطانية على البحر الأحمر ! ثم أقبلوا على الخليفة العثمانى فزعموا له أن سلطان المهدى خطر على سلطانه ، وأن دعوته تمتد الى مصر ولا تلبث أن تسودها وتسود شمال أفريقية كلها ، بل لا يبعد أن تعم دعوته الشام أيضاً ، وساعدهم على ذلك قيام عدد من الثورات فى الشام، وأذاع المهدى منشوراً على أهل الصعيد وعلمائه يدعوهم إلى رسالته ! فلم يلتفت اليه أحد منهم ثم انصرف الانجليز الى الخديوى توفيق ـ وكان شديد الثقة بهم ـ وأسروا اليه أن السودان عبء ثقيل عليه ، يكلف مصر سنوياً ٦٤٠ ألفاً من الجنيهات لا يرد لها غير ١٦٠ ألفاً منها ، وإنه

ليأخذ من نشاطها ووقتها أيضاً ، والخير الخير فى تركه
وإخلائه فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ويحدثنا ملز
فيقول « إن الحكومة البريطانية طلبت من بارنج أن
يبلغ الحكومة المصرية أن السودان يجب أن يخلى بأسرع
مايمكن ، وأن أى وزير يعارض فى هذه الخطة يجب أن
يعزل »

وانهالت البلاغات على بيرنج وكلها تلح فى أن يخلى
السودان وأن تنسحب الجنود المصرية الى حلفا ، وأخذت
التيمس تلح هى أيضاً فى إخلاء السودان فى شيء من العداء
والسخرية اللاذعة ، وسارت معظم الجرائد الانجليزية
على غرار التيمس وقالت فى ٧ يناير ١٨٨٣ « إن الأمور
فى مصر تغيرت ولم يعد السير إيفلن بارنج يعطى نصائح
بل يصدر أوامر » بل ذهبت جريدة محافظة إلى أبعد من
هذا فزعمت « أن الأمن على حدود وادى حلفا أمر يمس
سلامة الأمبراطورية وأن مسألة الجلاء عن مصر تتعلق
كل التعلق بمسألة إخلاء السودان »

عرض الأمر على مجلس نظار مصر ، وكان على رأسه
شريف باشا وهو رجل يمتاز عن معاصريه من الساسة بأنه

وطنى مترفع شديد الأباء ، وتناقش مجلس النظار فى هذا الموضوع فلم يجدوا أى مسوغ لهذا التصرف الشاذ . . . أليس الأولى من إخلائه أن تحارب الثورة فيه وأن يقضى عليها فيستقر الأمر لمصر من جديد ؟ أليس هناك أقاليم بأسرها خاضعة لمصر لم تمسسها الثورة بعد ولايزال أهلها يدينون لمصر بالولاء ؟ ففيم إخلاؤها ثم إعادة فتحها ؟ هكذا كان المنطق المعقول الذى يراه العقلاء ، ولكن الانجليز يريدون . . . إذن فليعتزل شريف وليحل محله نوبار ليقر هذا الأمر ولتعلن الحكومة المصرية إخلاء السودان .

كان من السهل أن يعتزل شريف الحكم ويليه نوبار اللين المواتى بيد أنه ليس من السهولة إخلاء السودان وأقاليمه الواسعة والجنود المصرية مبثوثة فيه فى كل مكان من خط الاستواء الى سواكن إلى سنار إلى الغضارف إلى غير هذه الجهات المترامية الأطراف ، كيف يمكن سحب هؤلاء الجنود والنجاة بهم ، ألا يعد إعلان إخلاء السودان بمثابة حكم بالأعدام على هؤلاء الجنود الذين يحيط بهم الأعداء ثم تأمرهم الحكومة بالتقهقر بعد ذلك ؟ ثم إذا

كان الغرض حماية مصر فهل إخلاء السودان يحميها ؟هل سحب جنودها منه يقوى رايتها فى وادى حلفا ويزيد هيبتها فى عين المهدى ؟ ثم ألا يكون انسحاب الجنود المصرية من السودان داعياً الى إنتقام المهدى من الجهات التى بقيت موالية لمصر فى هذا الامتحان العسير ؟ أكبر الظن أن النتيجة المحتومة هو الزراية بهيبة مصر وتشجيع المهدى على غزو الصعيد ! وإن لم يكن قـــد فكر عملياً فى هذا .

ثم كيف تترك الحكومة المصرية هذا الشطر من بلادها وقد دفعت فى تنويره وتجديده ملايين الجنيهات ، كيف تتركه وفيه منشآتها وأبنيتها وقاطراتها وبواخرها ومعداتها؟ كيف تترك كل هذا الذى أقامته بعرق الفلاح وبذلت فى سبيل هذا الفتح دم أبنائها وروت به أرض السودان ؟ ثم تنسحب بعد ذلك فيخربه رجال المهدى وهم قوم على الفطرة فلا يبقون على أثر من هذه جميعاً ثم تعود فتفتحه من جديد لخطة الانجليز بدم الفلاح المصرى المسكين...

ولـكن انجلترا تريد .

أما كان الأولى أن ترسل مصر قوات جديدة إلى السودان فتحصن الخرطوم وتهاجم المهدية فى كردفان وفى سنار وتعيد النظام وتؤمن حدود مصر لو كانت الغاية تأمين النظام وتأمين حدود مصر حقاً ؟ إنهم بهذا يضمنون سلامة الجنود المصرية المحصورة فى سواكن وبربر وكردفان وغندكرو وقطر الاستواء؟ إنهم بهذا يضمنون سلامة المنشآت والمبانى وأوراق الحكومة وسجلاتها وما أنفق فى سبيل هذا كله ؛ إنهم بهذا يرفعون سمعة مصر لو كان لسمعة مصر وزن فى هذا الزمان. ولكن انجلترا تريد...

هى تريد أن ينسحب المصريون من السودان ويخلوه إخلاء تاماً ثم يعودون إلى فتحه بجيوش مصر وقيادتهم فيكون لهم حق النصف فى حكمه ؛ ولعل معترضاً يقول وما كان ضرها لو انها فتحته هى بنفسها كما فتحت مصر؟ بيد أنها أذكى من أن ترتكب هذا الخطأ ؛ إنها فى الحالة الأولى تستطيع أن تستخدم كل ما تملك مصر من مال وجنود وآلات وهى عليها أن تقدم القواد بينما مصر تقدم الجنود ؛ هى ترسم الخطط ومصر تدفع المال وتعمل على التنفيذ ثم يكون الأمر بعد هذا لها وحدها .

رفضت وزارة شريف باشا أن تسحب الجنود المصرية من السودان فاستقالت وأعقبتها وزارة نوبار باشا التى أصدرت فرماناً بتولية غوردون باشا أمر السودان ودعوة المصريين منـــه جنوداً وموظفين وتجاراً (١) وتسليم البلاد لسلالة الملوك الأولين ، وكان كتاب الخديوى مضحكا حين طلب تسليم السودان إلى ملوكه الأول وهو يعلم أن ليس فى السودان من يستطيع أن يقف للمهدى أو يحاوره فى الولاية على تلك البلاد ، ثم إن غوردون سار إلى الخرطوم فنزلها مجرداً من كل قوة وهناك طلب الأعيان وأراد أن ينظم الأمر فجمع دفاتر الضرائب والسياط وآلات العذاب وحرقها على مرأى من أهل البلاد ؛ ثم أذاع فى الناس أن محمداً احمد قد عين سلطاناً على دارفور ، فقوّى هذا من شأن المهدى وأذاع

(١) قال الخديوى فى كتابه الى غوردون « ان الغرض من ارسالكم الى السودان ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر وذلك مع حفظ النظام فى البلاد بأعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصرى ولنا مزيد الثقة أنكم تتخذون أفضل الطرق لاتمام هذه المهمة طبق رغبتنا والسلام »

إعجاب الناس به فتقاطروا عليه ، وأضاف غوردون إلى ذلك أن السودان قد فصل عن مصر تماماً ، وبعث فى طلب الزبير باشا على أن يولى شؤون بلاده وتعطى له قوة حاكم مطلق فى كل نواحى الحياة السودانية مقابل أجر ثابت قدره ستة آلاف جنيه فى العام ، كما أعلن إباحة الرقيق والمتاجرة فيه .

غير أن الحكومة الانجليزية رفضت رفضاً باتاً أن يعود الزبير إلى السودان وهو صديق مصر وله فى حبها تاريخ ، وليس فى وسعها أن تكل اليه شؤون بلاده وهو رجل قوى قادر وهى تريد فى دخيلة نفسها وقبل كل شيء تنفيذ الخطة المرسومة بأخلاء السودان .

وبقى غوردون فى الخرطوم حائراً بين نواياه الطيبة وبين حكومته الغادرة لايدرى ماذا يصنع والدراويش يتقدمون إلى الخرطوم ابتغاء حصارها والقضاء على البقية الباقية من قوى المصريين فى السودان ، وفى مارس ١٨٨٤ وقعت واقعتان مهمتان أعقبهما حصار الخرطوم ، حيث أرسل المحاصرون إلى غوردون كتاباً يطلبون فيه تسليمه بالحسنى ، ولكنه رد على كتابهم مهزئاً المهدى ودعوته

المهدية فما كان من المهدى إلا أن أرسل اليه كتاباً (١) شديد اللهجة ، عنيف الأسلوب ومعه هدية هى لباس للدراويش . ركلها غوردون بعـــد أن سمع ترجمة الـكتاب .

وفى أثناء ذلك كانت الأنباء تترى على الخرطوم بسقوط المدن فى أيدى الثائرين مما ثبط الآمال وخيب الرجاء ، وانتهى الأمر بسقوط الخرطوم وهزيمة الجند المصريين من باشبوزق وسود ، وجرت فى ذلك خيانات مشهورة لاداعى لذكرها ، ولـكن الشىء المحزن حقاً أن غوردون الانجليزى أخلص النية إخلاصاً صادقاً على تنظيم أمور السودان ، بيد أن الاستعمار الانجليزى أيضاً أبى عليه هذا الاخلاص وقدمه على مذبحه قرباناً تتهافت على جثمانه سيوف الدراويش !

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ص ٢٢٦ جزء ثالث

فتح السودان واتفاقية ١٨٩٩

تم إخلاء السودان كما رأينا نزولا على إرادة الانجليز مما اضطر الوزارة الشريفية إلى أن تستقيل إذ « تطلب حكومة جلالة ملكة انجلترا أن نترك السودان ، وليس من حقنا أن نسلم بتركه ، لأن هذه البلاد التى هى ملك الباب العالى قد سلمت لنا لنحافظ عليها »(١)

تم جلاء المصريين عن السودان بجلاء أمين باشا فى ١٠ أبريل ١٨٨٩ عن آخر بقعة فى تلك البلاد ، وطوى العلم المصرى الذى مضى يرفرف على ربوع القطر الشقيق أكثر من نصف قرن ، وأخذت انجلترا تنظم أمورها فى إفريقيا لتكوين الأمبراطورية البريطانية التى كان يحلم بها غلادستون ، فبسطت حمايتها على أوغنده وعقدت مع ألمانيا اتفاق ١٨٩٠ أعترفت فيه الأخيرة بنفوذ انجلترا فى أعالى النيل ، وعقدت مع حكومة الكنغو البلجيكية اتفاقا

---

(١) من كتاب استقالة شريف باشا

يسمح بمرور سكة حديد الكاب فى أرضها مقابل رضاء الحكومة الانجليزية بمد نفوذ حكومة الكنغو على مجرى النيل غرباً حتى فاشودة ، وأثار هذا الاتفاق غضب الفرنسيين فأعلن وزير خارجيتهم المسيو هانوتو بأن «هذا الاتفاق باطل لأنه اتفاق على ملك لا تملكه انجلترا وهو ملك السلطان الذى ضمنت صيانته معاهدات دولية والقائم بأمره خديوى مصر بمعاهدات تقضى بولايته» ثم اتفقت فرنسا مع بلجيكا على أن تحل محلها فى تلك الجهة إلى أن «يتمكن خديوى مصر من استعادتها فتعيدها اليه كما هى» ولكن السير إدوار غراى خطب مطالباً بحق مصر محتجاً بأن الأنجليز قوامون على مصالحها !

وهنا ظهرت حملة مرشان المشهورة بأزمة فاشودة ، فقد وجد الفرنسيون أفريقيا أرضاً بكراً مشاعا للسابق الموانى لذلك بادرت جيوشهم بالانتقال إلى أعالى النيل حتى وصلوا إلى منطقة فاشودة وهى فى الأصل جزء من أملاك الخديوى فى السودان ، وقد أحس الانجليز أن فرنسا تطمع فى السودان كما تطمع هى فوجدت الوقت ملائماً لفتحه من جديد ، وخاصة بعد أن دخل مارشان

الحدود السودانية فألفت حملة من المصريين قودت عليها كتشنر ، وأخذ هذا يغز السير فى السودان شرقا وغرباً وجنوباً حتى وصل إلى فاشودة ورفع عليها العلم المصرى ، وكادت تقع الحرب بين فرنسا وانجلترا لأن الانجليز « لايستطيعون التسايم للفرنسيين بأعالى النيل لأن النيل هو مصر ومصر هى النيل » كما جاء على لسان السير إدوارد غراى ؟ ! وانتهى الأمر بانسحاب حملة مرشان من فاشوده .

زحف الجيش المصرى واحتل مديرية دنقلة ، ثم استأنف الزحف ودخلت الجنود المصرية أبو حمد ثم استولوا على بربر حتى تم فتح السودان بضرب أم درمان وهدم قبة المهدى فيها ، وحاول الدراويش الهجوم على الجيش المصرى فى فجر يوم من الأيام فحصدتهم المدافع حصداً أتى عليهم جميعاً .

تحملت الخزانة المصرية ملايين عدة فى سبيل فتح السودان كما لقى الجنود المصريون عناء شديداً وأهوالا جلت عن الوصف ، ويجدر بنا أن ننقل هنا شيئاً من

مذكرات المرحوم لبيب الشاهد باشا (١) جاء فيها تصوير بديع للمجهودات التى بذلها المصريون فى هذا الفتح، قال يرحمه الله :

« كان تحرك الجنود المصرية من وقت أن ابتدأت التجريدة فى مارس سنة ١٨٩٦ من بلدة حلفا بالسير على الأقدام مصريين وسودانيين على السواء وكانت العساكر السودانية وبعض الأورط الأخرى المصرية تتقدم إلى الأمام وتحتل البلاد على مسافات متقاربة من ٣٠ إلى ٥٠ ميلا وتعسكر فى النقط الجديدة وهناك تقيم المخافر وتجرى الاستكشافات العسكرية واستطلاع أحوالها ليصدوا الغارات والتعدى على القوات التى خلفهم . وخلف تلك القوة السالفة الذكر كانت تعمل الجنود المصرية وهى الأورط ٥ جى أورطة و ٦ جى أورطة و ٧ جى أورطة و ٨ جى أورطة وتشتغل فى مد

(١) المرحوم محمد لبيب الشاهد باشا من الضباط الذين فتحوا السودان وله فيه تاريخ مجيد اذ بقى هناك حتى طرد الجيش المصرى سنة ١٩٢٤ ؛ وعين فى مصر مديراً لمصلحة الاشغال العسكرية وهوأول ضابط مصرى ولى هذا المنصب، وأحيل على المعاش ١٩٣٠ ثم أنعم عليه برتبة اللواء الشرفية تقديراً لتاريخه فى السودان .

السكة الحديد . وهـذه الأورط الأربع كانت بقيادة ضباط مصريين والجميع كانوا تحت قيادة القائمقام ابراهيم فتحى بك (المرحوم الفـــريق فتحى باشا) . ويحسن بنا أن نذكر أنه ما كان يوجد بالجيش المصرى الذى كان به ١٨ أورطة إلا هذه الأورط التى يقودها ضابط مصرى وما كان يشتغل بأشق عمل فى التجريدات وهو مد السكك الحديدية إلا هذه الأورط الأربع .

وقد استمر السير على هذا المنوال ، وكلما انتهى مد قسم من السكك الحديدية تتقدم الأورط الأمامية وتحتل موقعاً جديداً فى الأمام وخلفهم الأورط المصرية تمد الخط حتى تصل إلى النقطة الأماميـة وهكذا . وأول موقعة حربية مع الدراويش كانت فى بلدة فركه بين حلفا ودنقله . والثانية فى بلدة الحفير . والثالثة فى دنقله .

وقبل موقعة دنقله أحضر ألاى انكليزى بالسكة الحديد ونقل منها بوابورات البحر . والمسافة الممتدة من رأس السكة الحديد إلى نقطة معسكر الجيش الأمامى تبعد ٣٠ كيلو متراً من دنقله وكان قد تم استعداد الجيش للهجوم على دنقله فاشترك هذا الألاى معهم بسير هذه

الثلاثين كيلو متراً . ونظراً لصعوبة التحرك والسير وشدة الحرارة تخلف معظمهم فى الطريق مسافة الثلاثين كيلو متراً حتى لم يصل إلى دنقله واشترك فى موقعتها أكثر من ٢٠٠ جندى من الألاى الألف . وبعد إتمام فتح دنقله عادت الجنود الانكليزية إلى حلفا ومنها للقاهرة . واستمر التقدم بعد ذلك بالطريقة السالفة الذكر حتى أبى حمد . وهناك جرت موقعة أبى حمد ولم يشترك فيها أحد من الجنود الانكليزية . وظل الجيش مرابطاً فى أبى حمد حتى تم وصول السكة الحديد إليها مخترقة صحراء حلفا وأبى حمد من طريق آخر خلاف الطريق الأصلى إذ أن الطريق الأول يوصل إلى كريمه وهى بلد بحرى دنقله بنحو ٦٠ ميلا وعندها وقف الخط . وفائدة هذا الخط تنحصر فى فتح مديرية دنقله ولعمرانها فيما بعد .

أما الخط الآخر الذى يقوم من حلفا فهو يخترق الصحراء إلى أبى حمد مباشرة . واستمر العمل فى السكة الحديد حتى وصلت عطبره . وهناك استعد الجيش لعمل موقعة كبرى إذ كان بالعطبرة قوات كبرى للدراويش

تحت قيادة ود محمود من أشهر قوادهم ولقد أتى بالاى
من الجيش الانكليزى بطريق السكة الحديد ومنها نقل
بوابورات البحر بالقسم الباقى من المسافة ، وكان الجيش
المصرى يتجمع قبل عطبرة بمسافة ثلاثين ميلا . وفى
ثانى يوم ابتدأ الزحف على عطبره أى على مسافة ٢٠ ميلا
ووصل الألاى الانكليزى واشترك فى الموقعة
السالفة الذكر .

وهكذا استمر الحال فى العمل بالسكة بالحديد
والتقدم بالطريقة السابقة حتى وصل الجيش إلى شندى
وتجمع هناك للزحف على الخرطوم ؛ ولكن السكة
الحديد كان تقدمها بطيئاً جداً من العطبرة لصعوبة الطريق
وعدم ملائمة الطقس وكثرة الأمطار التى كانت تجرف
الجسور ، فكان من الضرووى انشاء كوبرى على بحر
عطبره لتمر عليه السكة فأوقف العمل تقريباً بالسكة الحديد

واستمر الجيش يتقدم ببطء من شندى حتى نقطة
السبلوكه ، وهى سلسلة جبال تقع على شلال سبلوكه وعلى
مسافة ٤٠ ميلا تقريباً من كررى . وكررى هذه هى
ضاحية من ضواحى أم درمان .

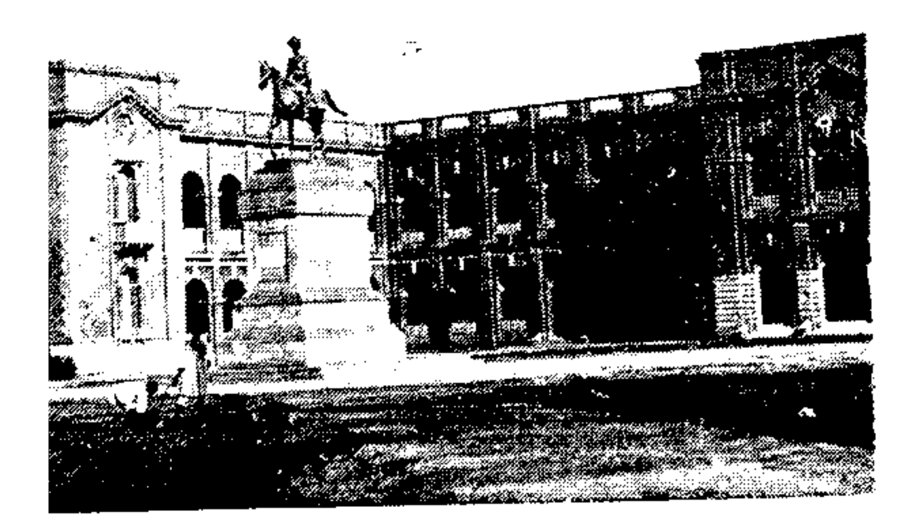
وفى ثانى يوم زحف الجيش من السبلوكه وعلى مسيرة يوم وليلة فقط من كررى وصلت الوابورات البحرية تحمل ألالايين اثنين من العساكر الانكليز اشتركوا فى الموقعة الفاصلة فى كررى التى قضت على الدراويش وبها تم استرجاع السودان »[1]

ثم قال فى مذكرات أخرى

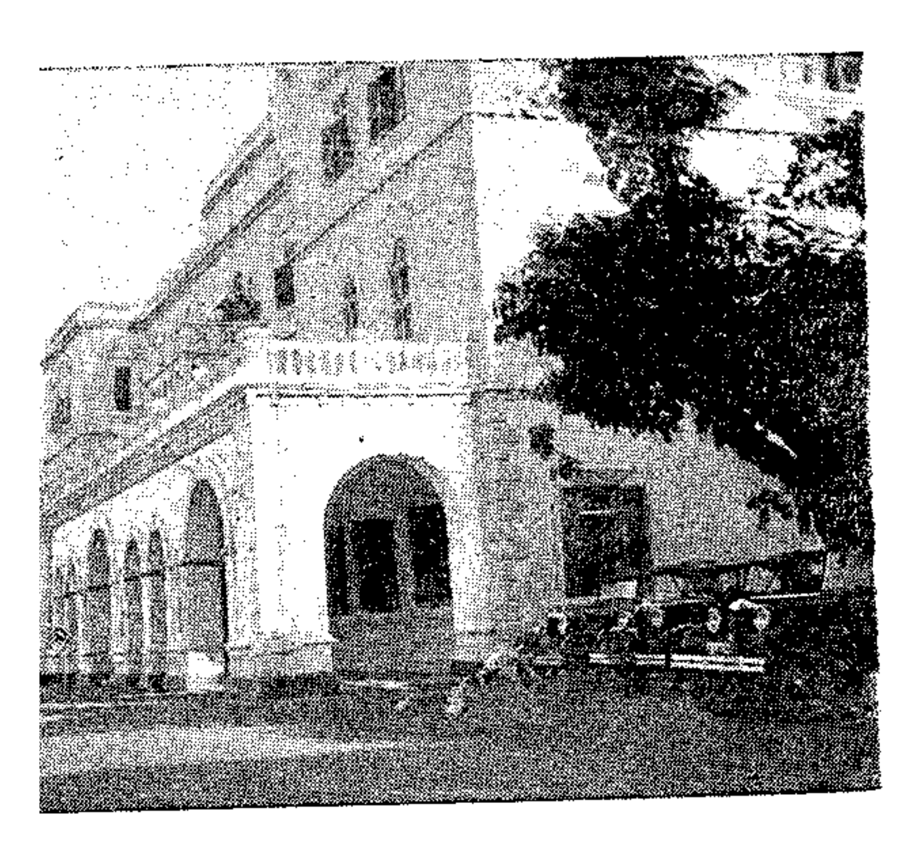
« بعد هـذا جاء دور تعمير السودان ، وهنا أذكر بفخر أن الأيدى المصرية أيضاً هى التى عمرته وحدها دون سواها ، فالسودانيون كانوا لا يعرفون من الصناعات شيئاً وعليه أخذوا فى مصر يجندون مئات من الصناع ويبعثونهم إلينا فى السودان بمعدات عملهم وآلاتهم ، وكنت إذ ذاك فى مصلحة الأشغال العسكرية فابتدأنا التعمير فى الخرطوم ببناء سراى الحاكم العام التى ما زالت موجودة ويسكنها للآن حاكم السودان العام ، ثم أعقبناها ببناء دواوين الحكومة وثكنات الجنود

---

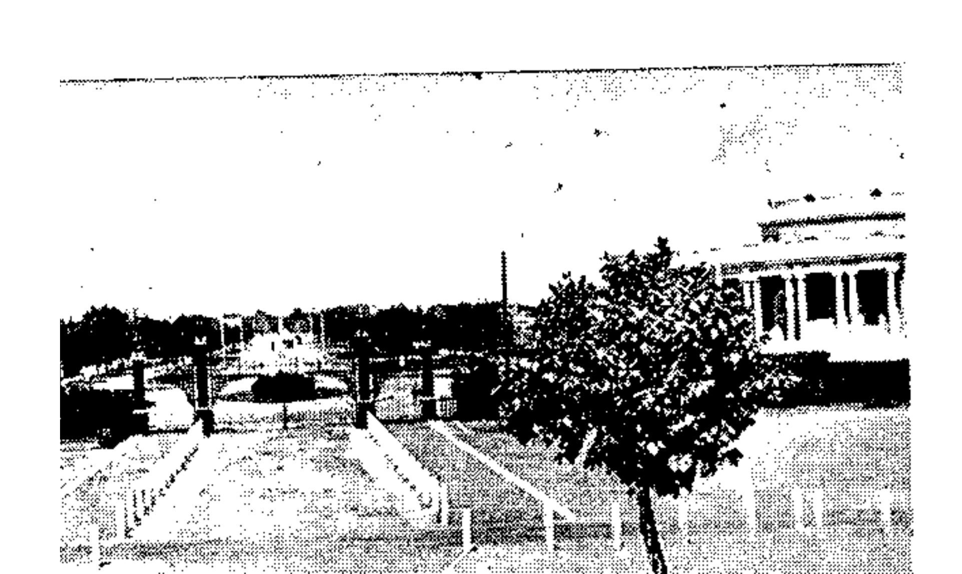
(١) هذه المذكرات مأخوذة من كتاب تضمنها هى ومذكرات المرحوم الأميرالاى محمد رفعت بك طبع على نفقة حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون



الادارة المالية



قصر الحاكم العام



محطة الخرطوم

ومنازل الموظفين ، وفى نفس الوقت كنا نبعث ببعض الصناع إلى البلاد المجاورة لتعميرها أيضاً » ا . ه

لعلك اقتنعت بعد حديث الشاهد باشا ، بأن المصريين هم وحدهم الذين فتحوا السودان، وقد أكد أن اليد الأجنبية لم يكن لها دخل فى استرجاعه وتعميره ، وهو يقصد من غير شك اليد الأنجليزية؛ ومع هذا فقد رُفع على الخرطوم العلمان الأنجليزى والمصرى ووقع بطرس غالى باشا باسم مصر واللورد كرومر باسم انجلترا إتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ وقد جاء فى بعض موادها مواد يحسن نشرها والتعليق عليها.

« حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الأنجليز والجناب العالى الخديوى

« وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن وما تستلزمه حالة كل جهة من الحاجات المتنوعة

« وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المرتبة على مالها من حق الفتح وذلك بالاشتراك فى وضع النظام الادارى والقانون الآنف ذكره وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل

« وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن إداريا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لها

« فلذلك قد صار الاتفاق والأقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم لهذا الشأن على ما يأتى :

« الأول — تطلق لفظة السودان على جميع الأراضى التى لم تحتلها الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٣ والأراضى التى كانت بأدارة الحكومة المصرية قبل الثورة الأخيرة وفقدت منها مؤقتاً ثم فتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد والأراضى التى قد تفتحانها بالاتحاد من الآن فصاعداً .

« المادة الثالثة — تفوض الرياسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب حاكم عموم السودان ، ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب

حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

« المادة الخامسة — لا يسرى على السودان أو على جزء منه شىء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بأجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السابق بيانها .

« المادة العاشرة — لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصليات بالسودان ، ولا يصرح لهم بالأقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية » .

رسمت هذه الاتفاقية فى اثنى عشر بنداً اخترت لك منها هذه البنود الأربعة لأبين لك أوجه الخطر فيها ؛ فهذه الاتفاقية من أساسها باطلة قانوناً لأن مصر نفسها وهى أحد الطرفين المتعاقدين لم تكن حرة فى الارتباط بأى تعاقد من هذا النوع إذ لا بد من الرجوع إلى تركيا فى مثل هذه الاتفاقيات حسب المعاهدات الدولية التى اعتبرت مصر والسودان من أملاك السلطان فى نظر القانون ، كما أن انجلترا مرتبطة بمواثيق مع الدول تحول دون احتلالها لمصر أو الاشتراك معها فى حكم السودان ،

وأما الاتفاقية من حيث هى تعاقد بين دولتين على إدارة شعب ما فقد جعلت السيادة للأنجليز دون المصريين، وفرضت على مصر تكاليف أبهظتها بينما أعطت انجلترا حقوقاً لا تعادل كفاحها فى شركة الفتح المزعوم، فأن الأنجليز يعلمون أن فتح السودان مسألة تهمهم من ناحية إنشاء الأمبراطورية الأفريقية، لا من ناحية الاستغلال، فالسودان فى ذلك الوقت لم يكن مغرياً إلى هذا الحد، لذلك عمدوا إلى مصر فى إعادة فتحه، ولم يقدموا من جنودهم إلا النزر اليسير كما أنهم لم يدفعوا إلا بضعة آلاف من الجنيهات لا تقدم ولا تؤخر فى تكاليف الفتح الجديد بينما دفعت مصر الملايين؛ وقد أخذوا فى ذلك برأى كرومر (١) حين قدم تقريره بأن « السودان هوة تبتلع الملايين كما يذوب الثلج فى حر الشمس فهو سبب وهن المالية المصرية وضعفها، وقد أنفقت فيه انجلترا مبالغ طائلة أملت استعادتها عند تصفية الحساب ففى ٤ أغسطس ١٨٨٤ قرر مجلس النواب فتح اعتماد بمبلغ ٣٠٠ ألف جنيه لحملة ولسلى لينقذ غوردون فوصل هذا

(١) السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية لداود بركات ص ٥٥

الاعتماد الضئيل إلى ١١ مليون جنيه ، وفى سنة ١٨٩٦ وعدت الوزارة مجلس النواب بأنها لا ترتكب مثل هذه الهفوة مرة أخرى ، فأذا ضمت السودان إلى أملاكها فأنها تضاعف تلك الهفوة » !

ترى إذن من هذا التقرير السرى الذى رفعه كرومر الى حكومته أن انفراد انجلترا بفتح السودان وحكمه أمر متعذر لا تستطيعه ولا تضاعف من أجله الهفوة! فهى لذلك عمدت الى الحكم الثنائى ليكون لها الغنم وعلى مصر الغرم، فمصر أنفقت على حملة دنقلة وحدها ثمانية ملايين من الجنيهات حتى اضطرت الحكومة المصرية لتغطية عجز المالية المصرية الى أن تبيع ما استطاعت بيعه بأمر الأنجليز، فباعت البواخر الخديوية والحياض ، وجعلت المالية المصرية فى كل نواحيها فى خدمة نفقات السودان ، ثم باعت التفاتيش والأراضى حتى صدقت الصحف المصرية حين زعمت أن مصر فى المزاد ! !

وقد كان هم جماعة من الانجليز فى ذلك الوقت أن يذيعوا فى الناس أخباراً تؤكد كراهية السودانيين لحكم المصريين ، وترحيب مواطنى السودان بالحكم الأنجليزى حتى إن بعض غلاة الاستعماريين فيهم جرءوا على الدعوة

بحكم السودان منفردين ، وألحوا فى ذلك إلحاحاً لم ينصت اليه أحد من الحكومة البريطانية العارفة ببواطن الأمور فى السودان ، زعموا أن السودانيين يرحبون بالحكم الانجليزى لأنه محا النخاسة وحافظ على العبيد من البيع والشراء ، وإذا كان حقاً أن العبيد قد أرضاهم منع الرق واحتفاظهم بأوطانهم وأسراتهم فأنهم لا يقبلون مطلقاً أن يقـــوم على حكمهم رجل أبيض لا يمت اليهم بصلة ولا دين ، كما أن إعفاء السودان من تجارة الرقيق أحفظ جماعة التجار الذين كان رزقهم الوحيد من تجارة العبيد ، كما أن السودانيين المتعلمين الذين على شيء من الدراية بالحياة السياسية والاجتماعية عند الشعوب كانوا — ولا يزالون — من أشد الناس كراهية لوجود الأنجليز فى السودان ، لأنهم يقدرون تماما أن مصر والسودان جزء لا يتجزأ فى الحس والشعور ، يعلمون أن البلدين قطر واحدمنذ عرف الانسان التاريخ الأول ، فهم لذلك عكس مايزعم الانجليز يحبون مصر ويرونها الأم الرءوم .

يعلم الأنجليز هذا كله ؛ ولكن بعضهم يأبى الاعتراف بالحق ولو ان رجالهم الرسميين يؤمنون - ولو فى أنفسهم -

بأن الحكم المصرى فى السودان أروح لنفوس السودانيين من أى حكم سواه ، فترى مثلا أن ونجت باشا فهم هذه الحقيقة تمام الفهم وأقرها فى منشوره الذى أذاعه على السودانيين لما ولى أمرهم كحاكم عام للسودان بدأه باسم الخديوى وانتهى به الى إرادة الخديوى أيضاً « فان سمو الأمير خديوى مصر عباس باشا حلمى الثانى حرسه الله قد اختارنى لأن أكون سرداراً لجيشه وحاكما عاماً للأقطار السودانية بعد اتفاقه مع دولة بريطانيا العظمى على ذلك» ثم قال « والله المسؤول أن يكون لى عوناً على تنفيذ إرادة سمو الخديوى المعظم »

وهذا كلام رجل لبق وسياسى ماهر ، لأن مخاطبة الشعب السودانى والازدلاف اليه عن طريق الخديوى المسلم أمر مستساغ عند السودانيين المسلمين الذين يربطهم بمصر العرف والدين .

المسألة السودانية

إن عنوان هذا الفصل أقبح عنوان فى هذا الكتاب لأن إظهار السودان منفرداً عن مصر قد خلق فى عالم الوجود مسألة شائكة لا يستسيغها الواقع الذى يحول دون تجزئة مصر والسودان ويفرض بقاءهما وحدة لا نلمس فيها استقلال الجنوب عن الشمال ، بيد أن اتفاقية يناير ١٨٩٩ قد جعلت السودان طرفا آخر فى حياة النيل . ولو ان المصريين جميعاً لم يقروا قط هذه الشركة وليس فى وسعهم أن يقروها مهما امتدت بهم السنون .

وليس هنا شك فى أن الانجليز وحدهم تمتعوا بخير السودان وبره ، ونالوا فى حكومته المناصب الرئيسية ، فالحاكم العام (١) والسكرتير المالى والسكرتير القضائى والسكرتير الملكى والمديرون وغيرهم من كبار الموظفين

---

(١) معنى هذه الوظائف أن الحاكم العام ممثل للملك والسكرتير المالى وزير المالية والسكرتير القضائى وزير الحقانية والسكرتير الملكى وزير الداخلية

إنجليز . أما المصريون فقد خرجوا من الشركة بطبقة من الكتبة وبعض المأمورين وقليل جداً من رجال القضاء وفئة صغيرة من المدرسين على رأسهم جميعاً قاضى قضاة السودان، ولولا الأسلام لكان هذا المنصب للانجليز من غير جدال !

فى مقابل هذا أدت مصر كل مايؤديه الشقيق لشقيقه من معونة ، فكانت ميزانيتها تتحمل أكبر القسط فى نشر لواءالأمن والتمدين فى ربوع الجنوب ، وتحملت غير هذا راوتب الانجليز والمصريين عـــلى السواء سن مدنيين وعسكريين ، ومع هذا كله فقد انفرد الحاكم العام بالسلطة فاختار موظفيه ومعاونيه من الانجليز وحدهم ، وبخل على المصريين بمنصب واحد ذى اعتبار ، وفى ١٩١٠ اجتهدوا أن يتخلصوا من البقية الباقية من شروط الاتفاقية فألفوا لذلك مجلساً عاما سموه مجلس شورى يساعد الحاكم العام فى تصريف مرافق الحياة فى السودان وحرموا المصريين الاشتراك فيه ، وفى تأليف هذا المجلس وضعوا خطتهم الجريئة لفصل السودان عن مصر .

ثم أقبلت الثورة المصرية فى ١٩١٩ واشتد أوارها ولم يستطع الانجليز كبتها فى مصر بينما اجتهدوا فنجحوا فى إبعاد السودان عنها ، وكان أسلوبهم فى تحقيق سياستهم مصادرة الصحف التى تصدر فى مصر وترسل الى السودان، وحجز الصحف الأجنبية التى تفيض بالحديث عن الثورة المصرية ، وبذلك انقطعت أخبار المجاهدين فى مصر عن إخوانهم السودانيين ، ولم يكتفوا بهذا بل ألغوا أجازات الموظفين المصريين حتى لاتتاح لهم فرصة يتعرفون بها حوادث مصر ويعودون منها ناقلين أخبارها وقاصين حوادثها مما قد يترتب عليه قيام الثورة فى السودان .

ومن العجيب أن جورج الخامس ألف وفداً من بعض السودانيين الموالين للانجليز لمقابلة جورج الخامس وإعلان طاعة أهل السودان وولائهم له ! ! ولم يكن هذا الوفد فى الحق ممثلا للسودان ولا عنواناً له لأنه تكون من صنائعهم والمؤمنين بهم وهؤلاء فئة لا يعتد بها ولا تمثل روح البلاد فى شىء ، ومع أن هذا الوفد قد ولد فى أحضان الانجليز فأنهم حرموه البقاء فى القاهرة يوما واحداً ،

وحجروا عليه فى رحلته حتى أدى رسالته بين يدى ملك انجلترا وأعلن رجاله (١) « حسن تقديرهم للعمل الذى قامت به بريطانيا العظمى لأحياء بلادهم وتنصلهم من الحوادث التى جرت فى مصر ، وقالوا إن همهم الوحيد هو أن يبقوا فى الامبراطورية ولا يفصلوا عنها »

---

(١) تصريح اللورد كرزون فى مجلس اللوردات فى شهر ديسمبر ١٩١٩

المفاوض المصرى والسودان

كان المفاوض المصرى وطنياً فى جميع مراحل المفاوضات السابقة التى تلت الثورة المصرية ١٩١٩ ،وأول المفاوضين الكرام المغفور له الزعيم الأكبر سعد زغلول

فهو أول مواطن مصرى جعل استقلال مصر والسودان نصب عينيه فى سياسته ومفاوضاته ، فمنذ تزعمه للحركة الوطنية ونحن نراه فى منفاه وفى زعامته للثورة وفى رياسته للحكومة عاملا على إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه قبل اتفاقية ١٨٩٩ ، فمذكرة الوفد (١) لانجلترا والدول حين كان فى باريز نصت على أنه « إذا كان المصريون يطلبون إرجاع السودان اليهم فليسوا مدفوعين لذلك بحب التوسع والاستعمار وإنما هم يطلبونه باسم الحق واحتفاظاً بكيانهم الوطنى . لقد كان السودان من الأزمنة الغابرة جزءاً متمما لمصر .

(١) هو الوفد الأول الذى كان يتكون من سعد زغلول ومصطفى النحاس باشا ومحمد محمود باشا ولطفى السيد باشا والمكباتى بك وعبد العزيز فهمى باشا واسماعيل صدقى باشا وغيرهم من السياسيين المصريين .

وإذا كان قد فصل عنها فى وقت من الأوقات فان مصر وهى مستقلة استقلالا إدارياً جعلت فى مقدمة واجباتها وأعمالها إعادته الى حظيرة الوطن الأكبر .

على أن المسألة ليست مسألة قانون أو مسألة تاريخية فقط بل إن مصالح مصر والسودان مرتبطة بحكم الطبيعة ارتباطاً يجعل كلا من البلدين متمما للاخر وكلا منهما فى حاجة الى الثانى ليستطيع الحياة والتقدم والرقى ، فاذا تسلطت دولة أجنبية على السودان كانت مصر التى لاتعيش إلا من النيل عرضة لأفدح الأخطار .

ولقد أشار المستشار الانجليزى لدى الحكومة المصرية فى تقريره الصادر يوم ١٤ ديسمبر ١٩١٤ بقوله (إن الأرض التى يرويها النيل من جبال الحبشة والبحيرات الكبرى إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط مهما كان الاسم الذى يطلق عليها هى كل لا يقبل التجزئة . ونظراً لتقدم فن الهندسة ذلك التقدم الذى بلغ الأوج فان الدولة التى تبسط حكمها على منطقة النيل تملك مراقبة المياه فى مصر . وعلى ذلك فالسودان ضرورى لمصر ؛ بل هو ألزم لها من مدينة الأسكندرية)

على أن سكان السودان من جهة أخرى ينتفعون كثيراً من اتصالهم بالمدنية المصرية التى لايوافقهم سواها ، فهم يعتبرون مصر بمثابة أختهم الكبرى التى يتكلمون لغتها ويرتاحون لنظمها وأخلاقها .

وهذا الميل المتبادل وذلك الاتحاد فى الأخلاق والأفكار هما نتيجة طبيعية لذلك الحادث التاريخى، وهو أن العرب الذين جاءوا الى مصر والعرب الذين توزعوا وانتشروا فى السودان يرجعون لأصل واحد، ولا يخفى أن سلالة هؤلاء هم اليوم الأعظم شأناً والأكثر استنارة بين سكان السودان.

وإننا بطلبنا إرجاع السودان الى مصر نريد أن نجعله شريكا لنا « له مالنا وعليه ماعلينا »

ثم انتقلت المذكرة الى الحقائق المرة فى السودان فقالت « بينما انجلترا تسود وتحكم بمفردها تلك الأقطار الواسعة فان مصر هى التى تدفع من أموالها مايسد العجز الفاحش فى ميزانيتها فضلاً عن الانفاق على الأعمال الكبرى التى تلزم لاصلاح الأراضى ولقد دفعت ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيها لمد الخطوط الحديدية ومليون جنيه لميناء بور سودان .

ومن عجائب الأمور أن مصر بأنشائها ميناء بورسودان من أموالها الخاصة أوجدت لتجارة السودان مخرجاً جديداً من شأنه أن يقلل مقدار المنفعة التي كانت تعود على مصر من تجارتها مع السودان !

وزيادة على ذلك فان الجيش المصرى المعسكر جله فى السودان هو الذى يستخدم لأخضاع الأراضى الخارجة عن الطاعة ولفتح بقاع جديدة لمصلحة النظام المشترك ، ومصر وحدها هى التى تتحمل بطبيعة الحال النفقات الجسيمة اللازمة لذلك .

وليت شعرى ماهى الفوائد التى نجنيها من وراء تلك الضحايا ؟ إذا تساءلنا فلا من مجيب .

ليس هذا فقط بل أن الموظفين المصريين يختفون شيئاً فشيئاً ليفسحوا المكان للموظفين الانجليز فى المناصب الكبرى على الخصوص ، وليس بعيداً ذلك اليوم الذى يخلو فيه السودان من أى موظف مصرى ماعدا الحاميات العسكرية التى تدفع مصر نفقاتها .

فلهذه الأسباب كلها نلح فى المطالبة بأرجاع السودان

إلى حظيرة الوطن الأكبر (مصر) وفاقا للحق والعدل» ا . هـ

ولسنا هنا فى حاجة الى تقرير مواقف سعد فى المسألة السودانية ، وتكفى زعامته وحدها لتقرير موقفه المشرف ووطنيته الخالصة ، أما سعد فى رياسة الحكومة فقد كان مخلصاً أشد الاخلاص فى عمله على وحدة النيل ، كان زعيما أكثر مما كان رئيساً للحكومة ، لقى العنت من خصومه السياسيين الذين أحرجوه فى البرلمان المصرى ، وأمعن الخصوم الانجليز فى إحراجه بتصريحات رجالهم المسؤولين فى انجلترا عن تمسكهم بالسودان كأنه جزء من امبراطوريتهم ، كما ضايقه إنجليز والسودان الذين اضطهدوا أنصاره من السودانيين .

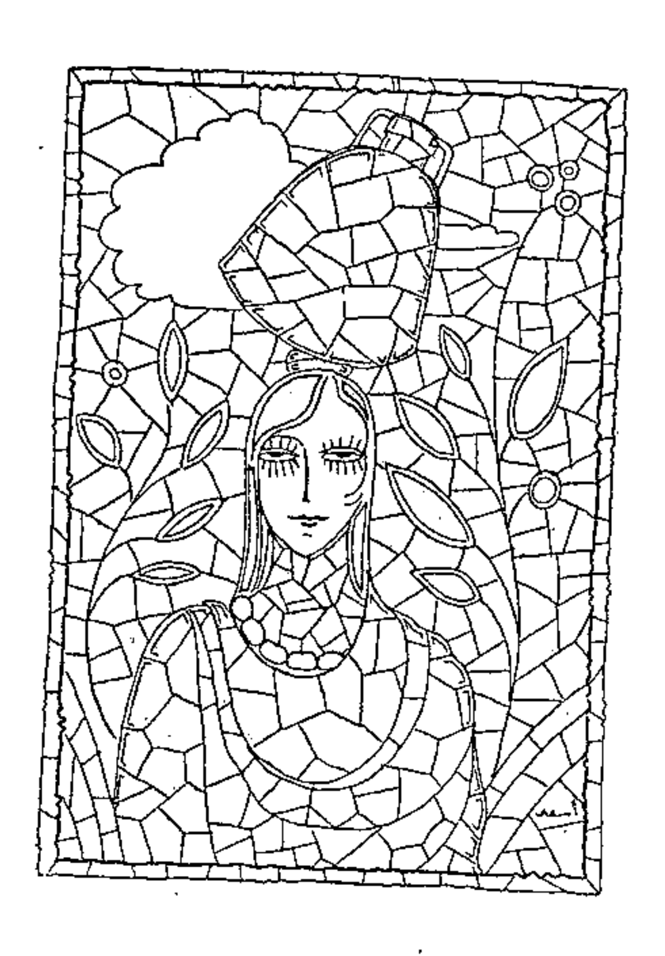
فلما صرح بارمور باسم حكومته « بأن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأى حال كان » أجاب سعد إجابة الزعيم الذى لا يتردد ، ويرى الحق فى جانبه على هذا التصريح بتصريح أقوى وأصدق من تصريح اللورد بارمور فى مجلسى البرلمان المصرى « إننى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه ، وفى حضرتكم الموقرة ، أصرح بأن الأمة المصرية

لن تتنازل عن السودان ماحييت وماعاشت . . . إن حقوق الأمم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب إنى أريد أن أتمتع بها دون أصحابها . نعم أيها السادة لا يمكننا مطلقاً أن نتنازل عن السودان ، لا لأنه مستعمرة ، بل لأنه جزء من كياننا ، بل لأنه منبع حياتنا ، بل لأنه لا يمكن لمصر أن تعيش بدون السودان أصلا ». وقال فى ١٣ يناير ١٩١٩ فى خطبة له « مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة . . . . السودان ومصر أخوان يشربان الماء من نهر واحـــد . ويتكلمان لغة واحـــدة ويدينان بدين واحد . وإنه لمن المستحيل على مصر أن تحيا بغير السودان »

أما موقفه فى المفاوضات ١٩٢٤ فمعروف مشهور ، وقد قضى سعد وهو يؤمن إيماناً خالصاً بأن مصر والسودان جزء واحد يتمم بعضه بعضاً .

أما المغفور له عدلى يكن باشا فأن اللورد كرزون قدم له فى نوفمبر ١٩٢١ مذكرة بمشروع معاهدة بين مصر وانجلترا كانت المادة السابعة عشر خاصة بالسودان وهى فى الواقع لا تقدم ولا تؤخر ، بل تساعد على تحقيق الغرض الأنجليزى من اتفاقية ١٨٩٩ فكان رد عدلى يكن

رئيس الوفد الرسمى إذ ذاك «أما مسألة السودان التى لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لنا فيها من توجيه النظر إلى أن النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا فأن هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حقوق السيادة التى لا نزاع فيها مع حق السيطرة على مياه النيل»



١٩٢٤

لا يمكن أن يكون مقتل المرحوم ستاك باشا خالقاً للحالة المعروفة فى سنة ١٩٢٤ ، وكل ما يمكن أن يقال إن الاعتداء على حاكم السودان العام كان فرصة طيبة لتحقيق غاية القائمين بالأمر فى السودان إذ ذاك ، وكان هؤلاء يرون — عن عقيدة ومبدأ — أن فصل السودان عن مصر ضرورة تفرضها مصلحة الأمبراطورية البريطانية ؛ ومن الحق أن نذكر هنا أن ستاك باشا حاكم السودان المقتول لم يكن يرى رأى الساسة فى الاستقلال بأمر السودان ، وكثيراً ما كان يقف حائلا دون تحقيق هذه الغاية الاستعمارية ولو انه لم يوفق فى أغلب الأحيان

ولكى نصل إلى تصوير الحالة التى نشأت فى سنة ١٩٢٤ تصويراً صحيحاً يجب أن نعود إلى ما قبلها من ماض قريب ، حتى نستطيع أن نبرز النتائج بعد العودة بها إلى مسبباتها الصحيحة التى لا يرقى إليها الشك لأنها من الوقائع الظاهرة التى إن خفيت عنا فذلك لأنا لم نعن قط

عناية صادقة بأمر السودان وإن كان أمره يهمنا فى أقلام الصحف وعلى أفواه الخطباء . . . .

عند ما عاد المصريون والأنجليز إلى السودان عقب فتحه الثانى جمع كتشنر الضباط والجنود المصريين أمام أطلال سراى الحاكم العام فى الخرطوم ، وبعد هنيهة التفت الجند المصريون فأذا العلمان الأنجليزى والمصرى يرتفعان على سارية الأطلال ، فتجهمت وجوههم لأن السودان مصرى فى صميمه ولا يمكن أن يكون للأنجليز نصيب فيه ، ولم تكن اتفاقية ١٨٩٩ قد أذيعت بعد ، ولاحظ كتشنر اضطراب الضباط وغضبهم فخطبهم مؤكداً أن السودان لمصر وحدها وأنه إنما يرفع العلم الانجليزى على سراى الحاكم العام تحية من الفاتحين لدم غوردون المسفوك فى هذا المكان . . .

هذه الحالة العارضة وضعت أول حجر للمنافسة بين الانجليز الغاصبين والمصريين أصحاب الحق المسلوب فى السودان ، ثم بدأ الانجليز يحاربون الرق فى عنف وقسوة فأعتقوا الرقيق ، وكان لهذا أثر سىء على الحالة المالية فى السودان ، كان يجب أن يترك جيل الرق

على حاله ويحرم الرقيق بعد هذا الجيل ، لأن السودان كان أرضاً مشاعاً بين عيونه ، وكان هؤلاء العيون يشترون الرقيق للعمل فى أرضهم وقد تبلغ أرض الواحد منهم خمسمائة (جدعة) (١) يقوم على حرثها وزرعها فئة من الرقيق تتبع صاحب الأرض وتعينه على دفع الضرائب من محصولها ؛ فأذا ما ألغى الرق ترك العبيد أرض سيدهم فلم يعد فى استطاعته أن يقوم بزرع الآلاف من هذه الأفدنة لأن اليد العاملة قليلة أو قل معدومة مما ترتب عليه إهمال الأراضى الزراعية إهمالا خطيراً ، ولا ننسى أن هذه الأراضى تزرع كلما نزل بالأرض مطر ، فلو أمكن وجود اليد العاملة فقد لا توجد فى موسم الأمطار ، وهى على أية حال معدومة فى هذه الأقطار

كان من جراء إلغاء الرقيق إعتاق العبيد وهو عمل إنسانى من غير شك ولكنه غير طبيعى فى ذلك الوقت ، لأن الحكومة أعتقت الرق ثم فرضت ضرائبها على أصحاب الأراضى الذين أصبحوا فى عسر بعد يسر ، ولا يستطيعون سد أودهم ، فكيف يقومون بدفع

---

(١) الجدعة خمسة وثلث من الأفدنة

الضرائب وهى كثيرة متباينة ؟ نتج عن هذا كله إهمال الأرض المزروعة أولاً مما أعاد معظم أجزاء السودان صحراء قاحلة ، كما أن أعيان البلاد تدهورت حالتهم وعزت عليهم حياتهم الأولى فاضطرب الميزان الاقتصادى وأصبح النقد عزيز المنال .

وكانت خطة الانجليز دائماً بث روح الكراهية فى نفوس السودانيين نحو إخوانهم المصريين ، فأقاموا عمالا من المصريين لجباية الضرائب ، وسلحوهم بالسياط وآلات العذاب ، وكان المصريون مضطرين إلى تلبية أوامر رؤسائهم من المديرين الانجليز فأوجد ذلك حالة من التوتر بين علاقات الأخين الشقيقين .

وألح الانجليز فى تسوىء سمعة المصريين عندإخوانهم السودانيين ، وكان هذا الأمر صعب المنال عند الشبان المتعلمين أو الذين لا يزالون ينهلون العلم فى مدارس السودان ، لأن المعلمين المصريين كانوا خير رسل لمصر هناك ، يدعون لها ، ويعملون ما وسعهم الجهد لرفع الكلفة بين الشمال والجنوب ، وغرس المبادىء القويمة فى نفوس الشبان ، مبادىء حب مصر واعتبارها جزءاً

مكملا للسودان كما أن السودان جزء متمم لمصر . كان يحمل علم هذه المبادىء أساتذة معروفون ، بعضهم قضى وبعضهم لا يزال يعيش فى زحمة الحياة بيننا كالمرحوم الشيخ الخضرى والشيخ عليش والأستاذ عبد الوهاب النجار .

لم يرَ الانجليز بداً من إخراج هؤلاء الأساتذة الذين كانوا أعظم أثراً من وجود الجيش المصرى فى السودان ، فسعوا حتى وفقوا وكان لهم ما يريدون .

وبقى الحال على ذلك نيفاً وعشرين عاماً قامت فى نهايتها الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، فعرف السودانيون بها ثم وجدوا زعيم النهضة المصرية يتحدث عن السودان فى خطبه ومفاوضاته وبرلمانه على اعتبار أنه جزء لا يتجزأ من مصر ، وأن لسكانه من الحقوق ما للمصريين تماماً ، ثم تدبر السودانيون الأمر جيداً فأحسوا فى أقوال زغلول ما يفسح أمامهم مجال الحياة . وَخاصة المتعلمين فيهم ، فهو يؤملهم بعضوية البرلمان ووظائف الحكومة الكبيرة ، وكيف لا يوقظهم هذا الحديث الحلو المستساغ ؟ إن المصريين يطلبون للسودان

ما يطلبونه لأنفسهم ، يطلبون خفض الضرائب ومحو الظلم ونشر الحرية ، إنهم يريدون لأخوانهم السودانيين أن يكونوا وزراء مثلهم وأعضاء فى برلمانهم ، وموظفين فى مختلف الدرجات ، يريدون لهم العلم والعمل ، ويرحبون بهم ترحيب الشقيق لشقيقه ، والأنجليز قد أصدروا منشوراً يقف ترقيات الموظفين من أهل السودان عند الدرجة السابعة ، ومعنى هذا أن السودانى مهما بلغ من العلم وأمضى فى الحكومة من سنوات العمر لا يبلغ مرتبه عشرين جنيهاً ، والأنجليز وحدهم هم الذين يحولون دون وصول السودانيين إلى المراتب العليا التى قد تبلغ الوزارة وعضوية البرلمان ؛ والأنجليز وحدهم الذين أبوا على السودانيين أن يتمتعوا بالرتب المصرية فليس فيهم باشا واحد بينما بلغ عدد الباشاوات قبل الفتح الثانى حوالى العشرين ، والانجليز وحدهم الذين يقفون دون حرية السودانيين وتخفيف الضرائب عنهم. والانجليز وحدهم الذين يحتقرون السودانى المسلم فلا يستطيع فرد منهم أن يبقى على دابته أو يمضى فى قعدته إن مر به

انجليزى مهما كبر مقامه فى عيون مواطنيه ، ومهما تواضعت مرتبة الثانى بين الانجليز ! . . .

اضطرب البريطانيون لروح السخط التى بدأت تسرى فى نفوس أهل السودان ، وهذا التطلع الشديد لسعد زغلول ومبادىء الحرية التى يعلنها المصريون ، فأرسل الحاكم العام منشوراً سرياً Secret and Strictly Confidential إلى رؤساء الحكومة من الأنجليز يطلب منهم عرائض ثقة بالحكم الأنجليزى ؛ ونشر هذا المنشور السرى فى الجرائد المصرية ، فجن الأنجليز فى السودان وأجروا تحقيقاً فى الموضوع لم يكن له أثر ما .

ووجد المصريون بعد هذا المنشور أن موقفهم سلبى يجب أن يقابلوا عرائض الثقة بعرائض ثقة أخرى تعلن تعلق السودان بمصر وطلب وحدة القطرين . ولم يستطيعوا بالطبع أن يحصلوا على كثير من العرائض التى حصل عليها الأنجليز ؛ حدث كل هذا وسعد زغلول يفاوض باسم الحكومة المصرية فى مصير مصر والسودان سنة ١٩٢٤

وأخذت روح السخط على الأنجليز تشتد وتقوى ، وروح الحب والولاء لمصر تظهر وتبين حتى قيض الله لمصر ظرفاً يؤكد فيه حب السودانيين لمصر فى أسلوب عملى عنيف

كان مأمور أم درمان فى ذلك الوقت عبد الخالق حسن افندى ، وكان رجلا رضىّ الخلق ، محبوباً من المصريين والسودانيين على السواء ، مرض فجأة ثم مات بعد يومين فخرجت أم درمان بأسرها لتودعه الوداع الأخير ، واستقبله السيدات السودانيـــات بالعويل والنواح كلما مر مشهده بدار إحداهن ، فلما ووري التراب لم يكن بد من شكر هؤلاء السودانيين الكرام الذين بلغ عددهم فى جنازته عشرات الألوف فوقف قاضى أم درمان الأستاذ محمد توفيق وهبى (١) وشكر

---

(١) الأستاذ محمد توفيق وهبى قاضى أم درمان كان رئيساً للنادى المصرى فى الخرطوم ، وكان أنشط المصريين فى الدعاية لبلاده فى تعقل ورزانة ، وكان محبوباً جداً من مواطنيه مصريين وسودانيين ، وقد أذاع فى الخرطوم نشاطاً عظيما فى حياتها الاجتماعية ، وكان أول من طرد من السودان قبل مقتل السردار ، وحاولت السلطة الانجليزية أن تسترده الى الخرطوم لتحكم عليه بالاعدام الا أنه كان قد ترك القطر المصرى وعاش فى أوروبا ردحاً من الزمن ثم عاد الى مصر منذ سنوات

السودانيين فى كلام اللبق المواتى ، كلام لا يؤاخذ عليه ولكنه كلام أثار حمية المواطنين السودانيين مما دعاهم إلى الهتاف باسم مصر . . . ثم تطور الهتاف إلى الدعاء باسم سعد زغلول . . . ثم هتفوا بحياة مصر والسودان ، وسارت هذه الألوف السودانية وحدها تنتقل من هتاف إلى هتاف حتى هتفت بسقوط انجلترا والأنجليز . . . وكانت هذه أول مظاهرة فى السودان !

إرتبك الأنجليز ارتباكاً لا نظير له فنزل البوليس فى الناس ضرباً وقبض على عدد كبير منهم وسيقوا إلى المحاكمة ؛ ثم تسامع الناس فى أرجاء السودان كله بأنباء المظاهرة وقسوة الجند بالمتظاهرين فقامت مظاهرات عدة فى الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحرى ، ثم قامت مثيلاتها فى حلفا وكسلا وعطبره وما إليها ، وفى يوم وليلة كان السودان شعلة تهتف بحياة المصريين وسقوط الأنجليز . . .

دعا السكرتير القضائى الأستاذ توفيق وهبى وطلب إليه أن يقوم بأجازته إلى مصر فوراً ولم تكن قد حلت أجازته بعد ! وسافر الرجل إلى القاهرة فودعه حشد من

الناس لا عدد له وأرسلت إليه الأورط الأنجليزية وجند البوليس كله ليكونوا فى توديعه مع المودعين !!! وحرم على الجنود المصرية الخروج من ثكناتها فى يوم سفره حتى لا تقوم حرب فى الخرطوم . . .

ولم تقف المظاهرات بعد سفره بل بقيت على شدتها فاضطر الانجليز إلى الاستنجاد بجند من الهند فأرسلت الجنود الهندية لتخمد الثورة فى السودان ، وكان هذا دليلا ساطعاً على أن السودانيين ساخطون . . . ولكن على الأنجليز وحدهم ! وفشلت عرائض الثقة وخاب طبل المستعمرين !

ووقعت حادثة السردار المشؤومة فثأر الانجليز لأنفسهم وحققوا خطتهم وطرد الجيش المصرى من السودان .....

خاتمـــــة

جرت مفاوضات بين المغفور له ثروت باشا والسر أوستن شمبرلن فى سنة ١٩٢٧ بيد أنها لم تثمر ولم ينته الطرفان إلى حل ، ورفضت مصر مجمل ماعرض عليها سواء كان ذلك خاصاً بمصر أو السودان .

ثم جرت مفاوضات أخرى بين حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا والمستر هندرسن فى صيف ١٩٢٩ إنتهت إلى مشروع معاهدة فاوض على أثرها حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا المستر هندرسن فى صيف ١٩٣٠ ، وفشلت المفاوضات عند نقطة السودان حيث وقف المفاوض المصرى أشرف موقف عرفه له تاريخ مصر الحديث .

أماالاتفاقية الحديثةالتى انتهوااليها فى هذا العام ١٩٣٦ فهى تحقق النظرية المصرية الى حد بعيد فى أمرالسودان ،

وقد وفق الجانب المصرى حين احتفظ لنفسه بحق تعديل هذا الاتفاق فى المستقبل .

وأنك لتلمس فى نصوص الاتفاقية بعض الفوائد التى إن أحسن تنفيذها حققت آمال القطرين الشقيقين ، فهجرة المصريين الى السودان ضرورة يمليها الواجب الذى يؤكد أن وحدة النيل رهينة بانتقال جزء كبير من المصريين إلى ربوع السودان التى هى فى أشد الحاجة الى اليد العاملة .

كما أن إنشاء المدارس على غرار مدارس مصر مسألة أهم بكثير من وجود الجيش المصرى هناك ، لأن وظيفة الجيش وإن كانت سامية من غير شك إلا أنها لا تستطيع أن تغرس محبة مصر فى مواطنى الجنوب بقدر ما يستطيع هذا المدرس المصرى المخلص النشيط ، ونحن نريد أن ينشأ الجيل الجديد فى السودان مطبوعا على حب مصر واعتبارها الأم الرءوم .

ولا ينبغى أن تتساهل الحكومة المصرية فى اختيار موظفيها فى السودان ، فهؤلاء الموظفون يحملون رسالة مصر فى معاملاتهم وطباعهم ويجب أن يكونوا مثال

الموظفين الأكفاء الذين يرون فى السودان بلداً لا يفترق مطلقاً عن مصر بحال، لا أن يعتبره بعضهم منفى ويعتبروا أهله عبيداً أو كالعبيد .

كما أن زيارة الشبان المصريين للسودان واجب محتوم ، فأن اختلاف الشبيبة المصرية وخاصة المتعلم منها كطلاب الجامعتين إلى بلاد السودان فى رحلاتهم أعظم نفعاً وأدق عملا من رحلاتهم الى بلدان أوروبا ، ومن واجب الحكومة المصرية أن تعنى بالشبيبة السودانية عناية خاصة فتسهل لأكبر عدد فيها الالتحاق بالجامعتين المصريتين ، كما ينبغى أن تنتهز فترة الصيف فتدعو الطلاب السودانيين الى زيارة مصر وقضاء فترة طويلة يلمون فيها بالحضارة المصرية ، ويرون أختهم فى حقيقتها دون أجر أو جزاء

ولعل من أفضل الوسائل لتحقيق الغاية المرجوة للبلدين أن يرتبط المصرى بالأسرة السودانية عن طريق الزواج ، وهذا إلى كونه طبيعى إلا أن تأثيرة فى الروابط بين مصر والسودان أنجع من وجود الجيش بل وجود المدرسين أيضاً ، ولعل من وسائل تحقيق غايتنا فى الجنوب أن يقوم أغنياؤنا بتشييد الملاجىء والمستشفيات فى مدن

السودان ، فأن ذلك يملأ قلوب المواطنين رضى وغبطة فيرون إلى العطف النظرى حنــان الواقع ، وفى ذلك ما فيه من أثر محمود على وحدة القطرين . . . .

إن النتيجة التى وصل اليها حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا فى معاهدة الزعفران مرضية وصالحة تتطلب عناية دولته الخاصة ليجنى الشعب المصرى آثارها الطيبة فى هذا العهد الجديد ، فقد واتت الفرصة المفاوض المصرى . ولم يبق لتحقيق وحدة القطرين إلا التماس الأساليب الصــالحة فى تنفيذ البند الخاص بالسودان فى معاهدة النحاس ــ إيدن .

« فى هذه الفصول المقبلة ستقرأ عن السودان طرفاً من الأخبار جمعناها من هنا وهناك ، ذكريات لبعض القاطنين فيه النازحين عنه مرغمين أو راضين ؛ وقد تخيرت لك أسلوب الأدباء لا أسلوب المؤرخين ، حتى لا يثقل عليك الحديث ؛ وفى ذلك تسلية محببة الى النفوس التى يرضيها أن تعلم عن بلادها ما تجهله »





الذكرى الجميلة

كان صاحبنا هزيلا كأنه ملفوظ من قبر ، قصيراً كأنه لم يخرج من الأرض بعد ! لا يحب فى الحياة إلا أمه ولا يؤثر عليها مالا أو طعاماً فقد خرج بها من الدنيا وكسبته هى من الحياة بعد جهاد حافل بالخير والشر ، لا يستيقظ حتى يراها ، ولا يغيب عنها إلا إذا اختلف إلى المدرسة أو شغل باللعب فى فناء الدار ، حتى إذا أقبل الليل مضى إلى أمه يحدثها وتحدثه ويتدلل عليها دلال الوحيد الذى لا يملأ الحجر غيره .

كان صاحبنا إذن صغير السن هزيلا قصيراً مدللا ، لا يحب المدرسة كما يحب أمه ، مشغوفاً باللعب وإن رغب عن الشارع والحارة وما يملؤهما من مرح يعشقه الأطفال وقد يستهويهم أكثر مما تستهويهم حلوى الدار وحنان الأم !

وفى يوم اجتمعت الأسرة تتناول الغداء صامتة كأنها فى عزاء فطفلها المدلل فى حاجة إلى تغيير الهواء ،

والطبيب ينصح للطفل أن يختلف إلى لبنان أو إلى السودان إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ، وطبيب الأسرة قد ألم بطرف من حياة الأسرة ، وقد علم أن عضواً من أعضائها يضطرب فى الحياة لا فى القاهرة بل فى الخرطوم ، وقد علم الطبيب النبيل الكريم أن حياة الطفل تفرض على عمه أن يرأف بها ويحنو عليها . . .

وكان الطفل ماكراً داهية وإن لم يبلغ هذه السن التى يحسن فيها المكر ويجمل فيها الدهاء ؛ فقد زعم لأمه أن طائفاً قد ألم به فى الليلة الماضية فى هيئة شيخ وقور لعله من القديسين أو الأنبياء ! وألح عليه هذا الطائف بالرحيل إلى السودان حيث شفاؤه ونعيمه ، وصور له الحياة هناك هينة لينة ، رقيقة عذبة ، وصور له أن قلبه لن يكبر للخير ، وأن صدره لن يتسع للعافية ما لم يغز السير إلى تلك البلاد ؛ وزعم الصبى الماكر الداهية أن عالم الطب لم يبدعه الله إلا لينجب هذا الطبيب الماهر ليذيع فى الأسرة هذا الرأى وإن آلمها ، وإن أوجع أماً حنوناً وأفاض من عينيها الدموع . . .

وكانت أم الصبى سمحة الطبع ، رضية الخلق ، طيبة القلب تود لابنها الحياة ولو شط به المزار وطالت به الفرقة ، وتود له السعادة مهما تبدل نعيمها بؤساً وفرحها حزناً ، فانصاعت إلى الرأى الذى أذاعه الطبيب بعد لأى وجهد عسيرين ، ولكنه انصياع من يؤمن بالرقى ويثق بالطائف إذا ألم بليل ؟ !...

ولم يكن هناك طائف ألم بالصبى الماكر بل هو درس قد تلقاه فى الجغرافيا منذ أيام على أستاذ فى المدرسة هو أجهل الناس بالجغرافيا ! زعم الأستاذ أن العقارب تسير فى السودان صفوفاً صفوفاً كأنها جيوش منظمة للغزو والفتح ! وزعم أن الناس فى حياتهم يتبدلون ويتغيرون وفى هذه الانقلابات لون من الفرجة أبدع من ألعاب المسرح والسينما ! كذلك صور للتلاميذ كيف أن السودانى يستطيع مبارزة أسد والتغلب عليه دون أن يستعمل سلاحاً من الأسلحة ! وقال المدرس العالم إنه يعلن على تلاميذه هذه الحقائق لا من الكتب فحسب بل هو يرجع بها فى بحثه وتنقيبه إلى المجلات والصحف وإلى رحلاته الخاصة فى السودان !!

وود الصبى الماكر الداهية لو يحدث أمه بهذا كله ، ولكنه خاف أحاديث العقارب التى تسير صفوفاً وألوان المتعة والفرجة فى السودان وهذه الأسد التى تغلب دون سلاح ! فأنها إن سرته فقد تضطرب لها أمه وتحرم السفر عليه فاخترع الطائف اختراعا ، ومكث ينتظر اليوم الذى يغادر فيه القاهرة وينطلق به القطار الى بلاد العقارب وناسها من كل لون عجيب ! وأخذ يعد الأيام عداً وكأنها أعوام فى حسابه وهى عند أمه لحظات خاطفات . . .

واليوم أصبح الصبى شاباً يافعاً يرجو لو يقابل أستاذ الأمس العالم فى الجغرافيا ! لا لينهره على هذا العبث الذى ألقاه عليه منذ خمسة عشر عاما بل ليشكره على هذه الكذبة الفارغة التى حسبها على السودان ، والتى علمت الطفل كيف يختلق حديث الطائف اختلاقا ، والتى حببت فى الطفل بلداً لم يكن يعرفه ، فعرفه لا فى العقارب ومبارزة الأسد بل فى هذه الحياة التى لا ينسى فيها أن قلبه قد كبر حقاً فامتلأ بالخير ، وأن صدره قد عوفى من الأمراض حقاً فبدأ يضطرب بأنبل العواطف وأصدق الأحاسيس...

السودانيون

فى أخلاقهم عامـــة

لا أريد أن أحدثك عن لون بشرتهم فذلك تحصيل حاصل كما يقول أهل المعرفة وضرب الأمثال ، بيد أن بشرتهم تختلف فى لونها عما هو مشاع بيننا بأنهم سود عميقو السواد فان من بينهم من تترجح بشرته بين السواد والسمرة كأهل الصعيد ، ومنهم الخمريون كالمصريين على السواء.

وبين السودانيين قوم طوال القامة عراض المنكبين، ومنهم معتدلو القوام اختصم فيهم الطول والقصر فأنتج جسما مقطوع النظير، ومن بينهم أقزام فى الجنوب الغربى من السودان حيث تتكاثف الأشجار وتزدحم الغابات .

وأخلاقهم كلونهم وطولهم ، أبدع الله بعضهم معاندين جفاة الطبع ولكنه وهبهم نفساً طروباً وميلا الى الحرية ونقاء فى القلب وإنكاراً للذات وهى صفات الجندى

الكريم على نفسه الأمين على رجولته ، وهؤلاء هم دعامة الفرق السودانية فى الجيش المصرى ، أما أولئك الذين يترجحون بين السوادوالسمرة ، ويفضلون القوم باعتدال الجسم فهم أكثر ليناً وأبعد تفكيراً لايحبون الخمر كما يحبها السود ، يعرفون الله فى دينهم الاسلامى الحنيف ، ويعبدونه فى إيمان صادق لا يتطرق اليه الشك ، يحبون الزواج المبكر وقد يتزوجون أربعا حباً فى كثرة النسل ورغبة فى تقوية الأسرة بينما السود فى الجنوب الغربى لم يعرف أغلبهم ديناً من الأديان ولا يميلون إلى الزواج فى سن صغيرة وإن كانوا يحبون الزواج الكثير مااستطاعوا الى ذلك سبيلا .

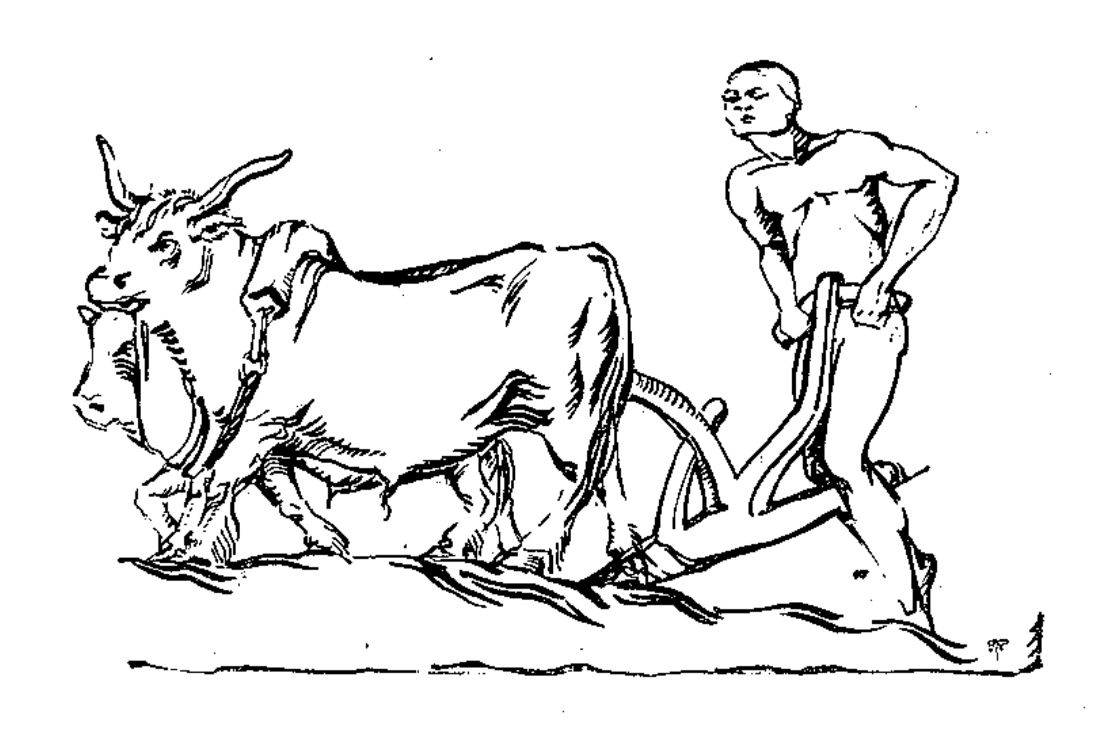
وأشباه السود يدخلون فى الثياب كما يفعل الحضر وإن كانوا فى بعض الأحيان يسعون حفاة الأقدام ، عراة الرءوس ، ونساؤهم يغلون فى الزينة والتبرج ، يمشطن شعورهن ويرسلنها بالحيحى ، فهم رجالا ونساء قد يحسون المدنية إحساساً طيباً . لا كالسود يعيش بعضهم فى هذا الزمان عراة الأجسام إلا من أوراق الشجر تخفى عوراتهم وإن أعلنت للناس مواضع أخرى كثيرة الشبه بالعورات !

أماسكان مابين الشلال الأول والرابع فهؤلاء مزاج من الأجناس قد امتازوا بما يمتاز به التركى والعربى والنوبى ، فيهم شجاعة النوبى ، وفى أخلاقهم مروءة العربى وكرمه ، وشهامة التركى واحتفاظه بعزته ، يلبسون ملابس المصريين فى القرى والحقول ، ويطلقون لحاهم وشواربهم ، ويحلقون شعر رءوسهم ، ولنسائهم فن قد امتزن به ، يجدن تجديل الشعر ضفائر دقيقة جداً كأنها السراط ، ويرخينها الى الوراء . ويتركنها تسرح على الاصداغ ، وسكان هذه الجهات لا يشربون الخمر ولا يلذ لهم شراب غير ماء النيل مجرداً من التنقية والتقطير .

وهؤلاء جميعاً فى زواجهم يميلون الى كسب قلوب النساء قبل التفكير فى الاستمتاع بأجسامهن ، ويميلون إلى رضى أمهاتهن وآبائهن قبل كل شىء ، وكثير من السودانيين على اختـــلاف ألوانهم وتباين أوضاعهم الاجتماعية يحترمون المرأة ويقدرونها قدرها ، يشاورونها فى الرأى ويأخذون عنها فى كثير من الأحيان .

وغير هذه الأنماط من الجماعات السودانية ، تجد قوماً يضطربون فى حياة كحياة المصريين حذوك الرأس

بالرأس ؛ فيهم التجار والصناع ، وفيهم المتعلمون كالمحامين والأطباء ، وهؤلاء المتعلمون قد تلقى معظمهم العلم عن مصر ورجالها أو فى مصر نفسها والقليل النادر فيهم من تعلم فى الخارج ، هؤلاء يشعرون كما تشعر أنت وأشعر أنا ، لا يفرقون بين القاهرة والخرطوم ، ولا يفاضلون بين السودانى والمصرى ، طبيعة الفاهم للوحدة ، المؤمن بهـا .



علاقات الأسرة (١)

يرفه عرب السودان نساءهم ويدللونهن الى الغاية ، فقلما تخدم المرأة فى بيتها ، فالطحن والخبز والطبخ والغسل كله منوط بالجوارى ، وعلى الخصوص الغسل ، فأن من أكبر المصائب على المرأة أن تضطرها الحال الى غسل الثياب وخاصة ثياب رجلها ! ومن مظاهر دلالها أنها لاتتحرك من مكانها إذا دخل عليها زوجها سواء كانت جالسة أومضطجعة . فاذاأعوزته حاجة لايكلف خاطرها بل يقضيها هو بنفسه أو يطلبها من الخدم ، وبذلك تعوّد النساء الترف والدلال حتى صرن إذا مشين تهادين فى خطوهن ، وقد تسير المرأة ساعة فلا تقطع مائة خطوة ولا تسوخ قدماها فى الأرض ولايتغبر نعلاها من التراب .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير

وعزيز المرأة الأول هو أبوها فهى تقسم برأسه كلما أعوزتها الحجة ، وهى لاتنطق باسم زوجها ولاتدعوه به بل تكنية باسم ولده البكر فتناديه بقولها يا أبا فلان أو أبا فلانه . . .فاذا لم يكن أنجب ولداً أو بنتاً كنته باسم أبيه كقولها ياود فلان . . . تعنى (ياولد فلان) . وهى قلما تقابل حماها أو تحدثه فى شىء إلا بعد أن تنجب لزوجها طفلا أو طفلة ، كما أن الزوج يبلغ به حياؤه الى حد أنه لايقابل حماته مطلقاً إلا بعد الزواج بمدة ، كما أن هذا الحياء نفسه يحرم على المرأة أن تتناول طعامها مع زوجها على مائدة واحدة ؛ كذلك يعتبر من شعائر الاحترام ألا يأكل الزوج مع حميه أو حماته وهو لايجلس فى حضرة حميه على كرسى أو عنجريب (١) بل يجلس على الأرض تحية واحتراماً .

وأما حماته ويسمونها النسيبة فاحترام الزوج لهافوق كل احترام عكس مانرى فى مصر فى كثير من الأسر، فبينما الحماة فى عرف المصريين وصحفهم الهازلة عدو

---

(١) سرير

وشيطان الزوج إذا بها أعظم عند الزوج السودانى من أمه وهى اليمين المغلظه التى يقسم بها ، فاذا قالو الرجل . . . ونسيبتك تقضى لى حاجتى . . وجب عليه بذل كل مافى وسعه لقضائها ، وكذلك الزوجة تقدر (نسيبتها) تقديراً عظيما وتضعها من نفسها موضع التقديس والا كبار .

والذنب الذى لاتغفره الزوجة لزوجها أن يسب أباها أو أمها أو يتحدث عنهما حديثاً غير مستطاب ، فهى لذلك تغضب غضبة مضرية قد لاتعود بعدها الى بيت زوجها مهما قدم لها من اعتذار . . .

وكما أن الرجل يحب حماه وحماته ويكبرهما كذلك الحمو والحماة يقدران صهرهما ويعاملانه كأنه ولد من أولادهما ويبالغان فى تكريمه فلا يسيئآن اليه مهما أفرط فى دلاله عليهما .

أما ابن الأخت فعزيز كالابن تماماً ، فالخال يعتنى بابن أخته ويربيه ويقدم له من نفسه وماله مايغنيه فى الدنيا حتى ليزوجه على نفقته .

هذا مجمل لعلاقات الأسرة عندهم أما الفتاة أو السيدة فعقابها القتل إن زنت أو حامت حولها الشبهات .

جمال الرجل وجمال المرأة (١)

الشاب الجميل فى عرفهم هو من كان مربوع القامة قمحى اللون واسع الصدر ، مجدول الخصر والذراعين ، طويل العنق منخفض الكتفين باسم الثغر مشلخ (٢) الخدين ، صقيل الأنف أفلج الثنايا أدعج العينين مفتوح الحاجبين باسم الثغر نير الوجه شريف الخصال .

والمرأة الجميلة هى من كانت مربوعة القامة مع الميل الى الطول ، صفراء اللون طويلة الشعر غزيرته واسعة الجبين ، زجاء الحاجبين دعجاء العينين سادلة الأهداب ، قنياء الأنف مع الميل الى التحدب ، لا كبيرة الفم ولا صغيرته ، عريضة الشفة السفلى موشومتها وموشومة اللثة ، مفلجة الأسنان بيضاءها مشلخة الخدين محفوصة الذقن طويلة العنق ، منخفضة الكتفين واسعة الصدر ، ناهدة الثديين ، رقيقة الخصر قصيرة الظهر ، مجدولة الساعد

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير (٢) مشرط

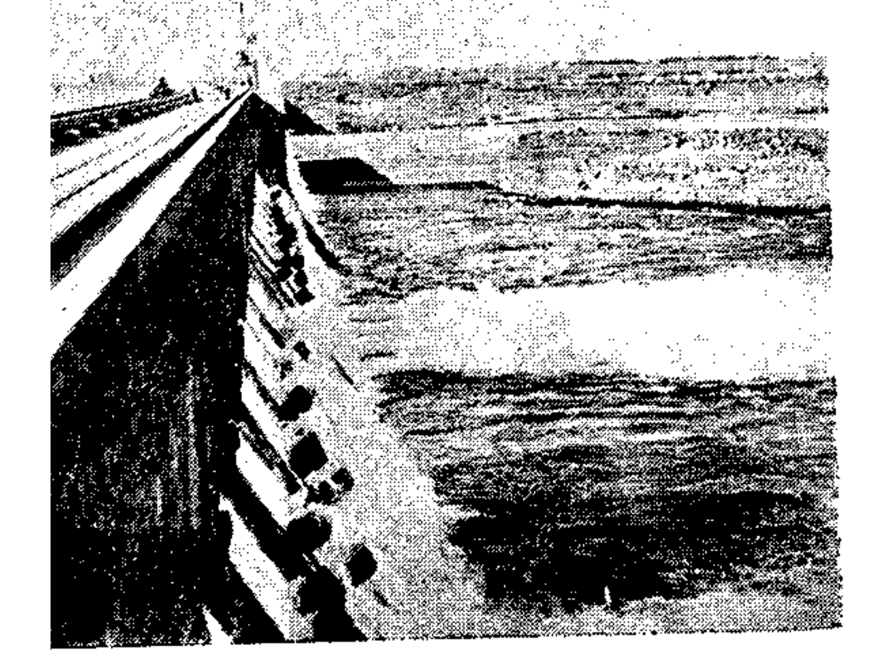
والساق ، رقيقة الأصابع بارزة الردفين مجموعتهما ، صغيرة القدم رشيقة الحركة لينة الأعطاف ، إذا رقصت انثنت إلى الوراء حتى يصل رأسها إلى قدميها ، وإذا مشت تمايلت كالغصن إذا حركه النسيم ، خفيفة الروح باسمة الثغر طلقة المحيا مصونة الحجاب جميلة الحركة أقبلت أو أدبرت .

وأجمل نساء السودان نساء الجزيرة روى بعضهم أن فقيهاً من أهل كردفان سمع بكرم الزبير فى بحر الغزال فقصده يريد منه نوالا فأمر له الزبير بجارية فلم تعجبه وقال « إنى قصدتك لجارية عنقها طويل وردفها ثقيل وشعرها غزير ، وبطنها ضمير وسنها كالجير وعينها كتبّ العدير إذا مشت كأنها أمير وإذا وقفت تعجب هذا الفقير » وأشار إلى نفسه ! فقال له الزبير « علىّ الطلاق إن هذه الصفات لا توجد حتى فى بنات الجزيرة » ثم نادى أحد غلمانه وقال إئتوه بزيتونة فأتوه بها وكانت جارية جميلة فأعجبته فقال « قبلت زيتونة الصادقة المأمونة اللهم اجعلها كزليخة المفتونة » فقال الزبير خذها وخذ هذه الجارية لها فازداد الرجل إعجاباً بكرم الزبير .

أخلاق عرب السودان

هى أخلاق العرب المشهورة فى كل زمان ومكان وهى حب الضيافة والكرم والمروءة والشهامة ومراعاة الجار واحترام العرض والافتخار بالنسب ويعنينا الغريب من أخلاقهم فأن فيه لوناً من ألوان البقاء المحمودة وسأستعرض لك هذه الغرائب فى إيجاز لأنها تدل على طبيعتهم وتعطى صورة حية لمكارم أخلاقهم .

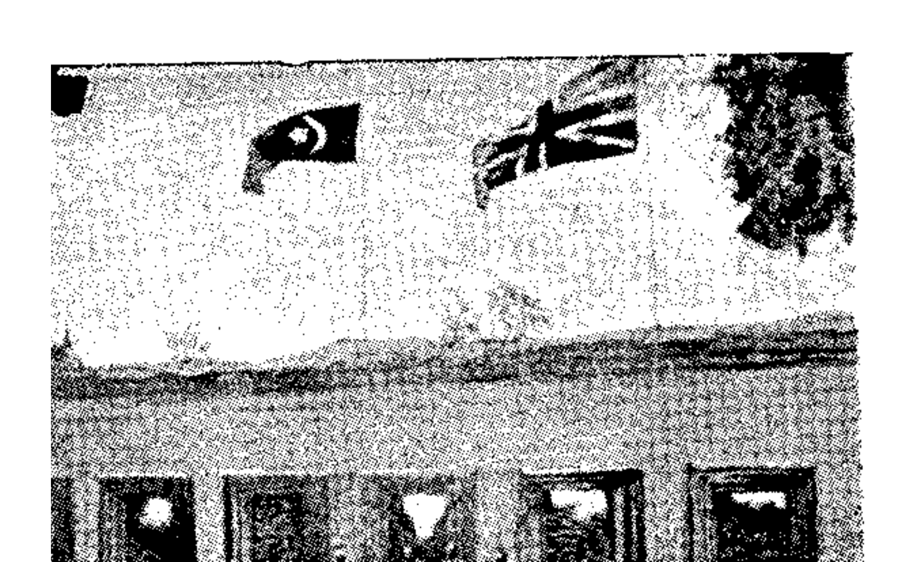
من إبائهم أن الجوع إذا ألمّ بهم أغلق الواحد منهم بيته على أسرته وانتظر الموت جوعاً مفضلا إياه على سؤال الناس خوفاً من التعيير بذل السؤال ؛ والمريض منهم إذا اشتد به المرض ألجم لسانه وفمه دون التأوه والشكوى ، كذلك المسوق إلى القتل يأبى التوجع والخوف ، وإذا أظهر المريض أقل تأوه أو المضروب أقل توجع أو المسوق إلى الأعدام أقل جزع عيروه وعيروا أسرته من بعده إلى الأزل . وعلى هذا الغرار يحلو لهم أن يظهروا بمظهر الشجاعة فأن كان أحدهم



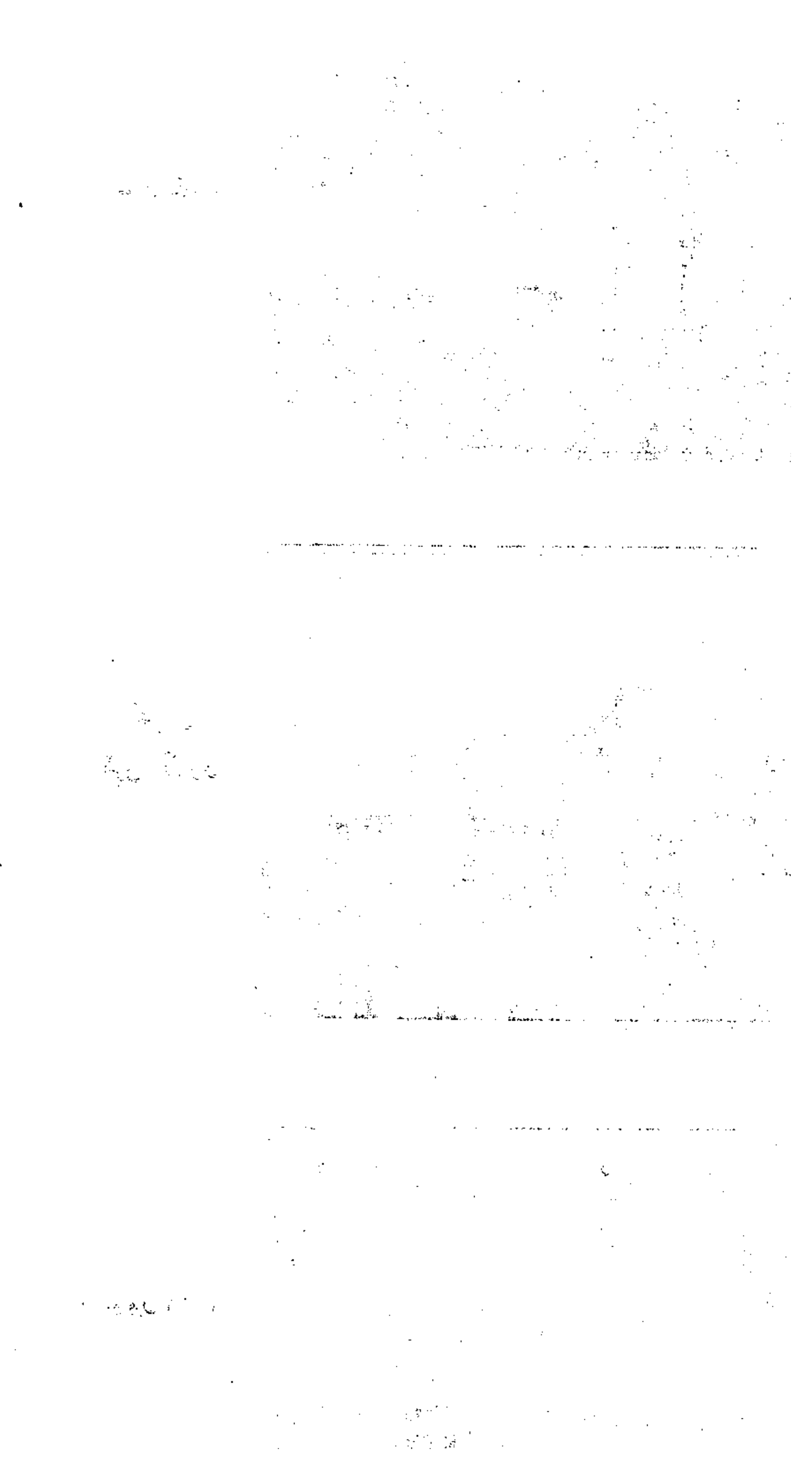
خزان مكوار



كوبرى
النيل الأزرق



٤ سبتمبر ١٨٩٨



سائراً فى الطريق وتعرض له كلب ونهشه من ورائه لا يرده عن نفسه بل يصبر على نهشه حتى تراه المارة فترد الكلب عنه .

من أثقل الأشياء على أنفسهم أن يهرب أحدهم من القتل ، فأذا ارتكب جناية تستوجب القتل لم يتردد فى انتظار الجزاء والخاتمة المحتومة ؛ وقد قيل فى ذلك إن رجلا يدعى عبد الرسول كان متزوجاً بامرأة يؤثرها على آله ونفسه وهى تكره أحد أخواله فمضت توغر صدره عليه حتى امتلأ قلبه حقداً فقصد خاله حتى جاءه ثم قتله بخنجره ثم أمسك بقدمه ليراه الناس وينال جزاء جريمته وهى الأعدام من غير شك ، ولما حضر إخوة القتيل ووجدوا أخاهم مقتولا بيد ابن أختهم لم يثأروا لأخيهم لأن العادة جرت ألا يُنتقم من ابن الأخت ، فلما حضرت أختهم والدة عبد الرسول صاحت وولولت ونادت بابنها وطلبت إليه ألا يعيش بعد أن قتل خاله فأخذ خنجره ومزق به قلبه وخر على الأرض صريعاً إلى جانب خاله فارتاحت أمه وقالت حقاً إنك ابنى وابن أبيك ! ثم حملوا القتيلين ودفنوهما فى حفرة واحدة

م — ١٢

ولعل هذا الخلق ، خلق انتظار القتل من غير تردد أو جزع يرجع إلى الأثيوبيين من قديم الزمان .

ومن المعايب عندهم أن الفارس إذا انكسر قومه وقتل فرسه لا يفر ولا ينخذل بل يبقى يدافع عن عرينه حتى إذا أخذه الأعياء افترش فروته ومكث ينتظر مقتله .

ومما يدل على كرم خلقهم أن أية امرأة إذا قصدت أى رجل وسألته حاجة من حاجاتها ، قام لفوره ، ملبياً طلبها منجزاً حاجتها . ولا بد له أن يقضى حاجتها مهما كلفه هذا من مشقة أو عناء .

أما كرمهم فهو ترديد للكرم العربى المعروف الذى يشبه فى كثير كرم أهل الصعيد ، فقد جعلوا فى كل بلدة منزلا خاصاً يضيفون فيه كل نازل ويسمونه « الخلوة » فأذا نزل بهم ضيف طبخت ربات البيوت فى القرية ما عندهن من طعام وأرسلنه إلى تلك الخلوة حيث يسبق رجالهن يحيون الضيف الكريم ، ويمتاز عرب السودان جميعاً فى كل نواحيه بأقراء الضيف وتكريمه .

وهم يتبارون فى أفراحهم بركوب الخيل أو الهجن ، ويرفعون سيوفهم وعصيهم ببعض أصابعهم دليل شجاعتهم

وقوتهم ، ويتبارى فتيانهم برفع الأحجار الثقيلة على صدورهم أو رءوسهم على غرار ما يفعل فتيان المصريين فى مختلف الأقاليم .

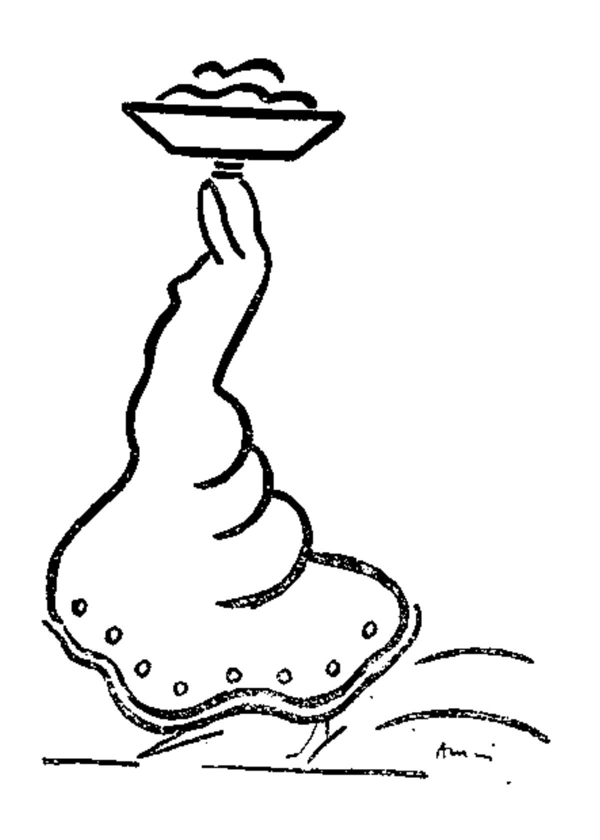
ومن عاداتهم أنه إذا اختلف شابان لأمر ما أخذ كل منهما سوطاً ووضعا بينهما عنجريباً (سريراً) ووقفا فى اتجاه مقابل ، ثم يخلع كل منهما ملابسه ويكاد يتجرد منها جميعاً ثم يجتمع الناس كشهود عدل ويبدأ أحد المتخاصمين بجلد الآخر سوطاً على ظهره ، ويرد الثانى السوط بمثله ، ويستمران على هذا الأسلوب حتى يخر أحدهما صريعاً من شدة الضرب فيحمل إلى بيته ويواتيه خصمه بحبه من جديد ؛ وهذه العادة غالبة عند العامة وقلّ فى الخاصة من يقبلها .

وإذا أعجبت فتاة بشاب من الحضور ووقع حبه فى قلبها نزعت من معصمها سواراً وألبسته إياه فيقف الشاب إذ ذاك ويهزه فوق رأسها هزاً عنيفاً متواصلا ويقول « ابشرى بالخير أنا أخو البنات عشرة (١) فأذا ظهر بين الحاضرين من يناظره فى حب هذه الفتاة ورأى

(١) يعنى أنا الفتى الشجاع

سوارها فى يده انبرى له وطلب مبارزته ، فيجلد أحدهما الآخر حتى إذا تحرك أحدهم أو طرف له جفن وأظهر شيئاً من التألم والتأوه لم يعد له فى البنت نصيب .

ولعرب السودان لون فى العشق غريب فهم يلطخون بدمهم جبين حبيباتهم عنوان إخلاصهم ووفائهم ، وعشاق أهل البادية يحبون الغزلان ويفتدونها بالروح والمال لأن فيها بعض ما فى عشيقاتهم ، وهم لذلك لا يذبحونها ولا يصيدونها، وهم يتكنون باسم حبيباتهم وفارسهم فى الحرب يقتحم الميدان وسيفه مسلول منادياً « لعينى فلانة »



تاجوج ومحلق (١)

كان «أوكد» رضىّ الطبع، لين الخلق، عذب الحديث وكان أوكد عزيز النفس عظيم الجانب، جرىء القلب بعيد النظر صادق الفراسة، لا يهون مهما عظمت المحن ولا يصغر مهما كبرت الأحداث، قد امتلأ رجولة حتى آمنت قبيلته الحُمُران العربية أنه خير من يلى سياستها، ويتدبر شؤونها ويرأس رءوسها.

وكان «أوكُد» جميل المحيّا زكى الطلعة أنيق الملبس، تتمثل فيه ملاحة البيد وفى مظهره أناقة الحضر، ويسحرك ببيانه وجماله ورقته جميعاً، تأخذك منه رياسته، وتلين جانبك بديهته، لا يكذب ولا يخاتل ولا يزور عن الحق

---

(١) على ذكر عشقهم رأيت أن أعرض لك صورة من حبهم العنيف وهى قصة يعرفها أهل السودان جميعاً كما يعرفها من عاشرهم من الأجانب، وهى أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة كقصة ليلى وقيس على أن فيها من العظة والعبرة وحسن الأحدوثة ما يجعلها مثلا للعشق الحلال والهوى الطاهر العفيف نقدمها لك فى أسلوب قصصى تستطيع أن تقرءها فى غير التواء.

والصدق ، قد اختصمت فيه أخلاق البيد والحضر ثم انحسرت فاذا أوكد ثمرة الخصام ومتاع الفتنة ، وإذا به مثل السودانيين فى جمال الخلق وكمال الخلق . . .

وكان لأوكد فتاة هى مثال الفتيات فى بنى الجمران ، وهى عنوان لأبيها وقبيلتها ، فيها ملاحتهم وجرأتهم ، جمعت فى نفسها إباءهم ، وضمت فى صدرها عزتهم، وأخذت لعشاقها سحرهم وسلبت فى حديثها عذوبتهم ، وسرقت لقلبها رقتهم وأملت على حاشيتها رقهم . . .

وكانت « تاجوج » قد اضطرب قلبها بهذا الحب المترف الذى يحسه السودانيون فى قدسية الناسك المتعبد ويؤمنون به وإن لم يروه : كانت ترى فى ابن عمها ملاحة وعزة ، والسودانيون يعشقون الجميل ويعجبون بالعزيز الكريم ، لا يحرمونه نفوسهم إن هفا لها ، ولا يضنون عليه بمالهم ورجالهم إن استعدادهم على جائر أو ظلوم . . .

وكانت تاجوج قد رأت فى « محلّق » إباء وعزة وحياة كلها جد لاهزل فيها ، وأحست فى جنباتها حنيناً اليـــه فأصغت بالمودة له ورغبت عن الزواج مرات ، والفتى مرهف الحس أذاع الحب فيه حياة وقوة وملأه نشاطاً

وجرأة ، وليس العشق فى السودان يباع ويشرى ؛ وقد تشترى ذاب المرأة لا بالدراهم والدنانير بل بالفضل والكرم والشجاعة والأقدام .

كانت تاجوج إذن تحب ابن عمها محلّقا لأنه كريم نبيل ، شجاع مقدام ، حتى إذا أقبل فى ذات يوم أو فى ذات مساء وجلس إلى الشيخ الكبير أُوكد يعرض قلبه ونفسه ويزجيهما بحياته الحافلة بالرجولة والعزة لم يتردد الشيخ الوقور فى قبول ابن أخيه الكريم بعلا لابنته الحسناء ، ولم يهن العشق الحلال قط فقبلت تاجوج أن تهب نفسها وقلبها لابن عمها الكريم المقدام .

* * *

وملأت تاجوج بيت زوجها مرحا وشغلته بالأنس وأذاعت فيه بهجة من نفسها ونوراً من عينيها ، ومضى الزوج المشغوف يختلف إلى الحياة ويضطرب فيها كما يضطرب كرام الناس ، ويعود إلى زوجه بعد غيبة طويلة أو قصيرة يحدثها أن القبيلة قد خاصمت قوماً وانتصرت عليهم بعد لأى ، ويذكر لها كرهم وفر العدو ، ويذكر لها أنباء جهاده وأصحابه ، وشجاعة عمه وفطنته . حتى إذا اطمأنت

على قبيلتها من الضيم رضيت عن زوجها وقبلته قبلة خاطفة نبيلة لا شهوة فيها ولا اشتهاء...

* **

وفى ذات يوم سكر زوجها بخمرة النصر وكسب العيش ولين الحياة فأحس فى نفسه ميلا إلى الترف كما رآه فى حاضرة من حواضر الشرق كان قد آب منها فى فجر ذلك اليوم، وود من زوجته لوناً آخر من ألوان المداعبة كان قد شهده فى إحدى هذه المدن التى يترف الناس فيها حتى النزق، ويلهون فيها حتى الفجور، طلب اليها فى غير استحياء أن تتجرد عن ثيابها وتقطع الحجرة جيئة وذهاباً، فأنه يود أن يمتع نفسه كما رأى الناس فى حواضر المدن يتمتعون... ولكن تاجوج أبت عليه هذا العبث، وضنت بنفسها أمام ضميرها أن تكون زوجة صغيرة حقيرة يتمتع بجسمها ويعشق قوامها قبل أن تعشق روحها...

أبت مرة ومرة، وودت لو تسوخ بها الأرض قبل أن ترفع عن نفسها حياءها وتخلع عن جسمها ثيابها...

ولـكن زوجها كان قد فتن بهذا اللون من إمتاع النفس فرجا وألح فى الرجاء ، وتمنى عليها أن تجيبه إلى هــذه الرغبة الملحة ووعدها جزاء طيباً ، فلما رأت منه هذا الألحاح وشعرت أنه يرد لها هذه الرغبة بما تحب طلبت اليه أن يعدها ويقسم أن ينزل لها عندما تريد . . . فلما خلعت ملابسها وتجردت منها كما ولدتها أمها وراحت فى الحجرة تعرض جسدهاهذا العرض الرخيص ، وأشبعت رغبته القبيحة من النظر القبيح . . . قال مر إذن بما تريدين . . .

قالت أريد أن تطلقنى فى الحال ؟ ! . .

طار صوابه . واضطرب قلبه وساخت روحه لأنه رجل شريف . . . ود لو ترضى بحياته دون هذا الطلب لأجابها ، مضى اليها مستغفراً لها ، مزجراً نفسه مسخفاً فعلته ، راجياً منها أن تعفيه من إجابة هذا الطلب ، ولـكنها أبت عليه الرجاء فأخذ يقبل قدميها ويجثو لعل قلبها يلين ولعـل نفسها ترضى وتغفر له ما تقـدم من ذنب ، ولـكنها أبت . . .

* * *

لم يكن بد من الطلاق فحلّق رجل شريف، والشريف إذا وعد أنجز وعده مهما يكن فى انجاز الوعد من قسوة ومهما يكن فى تلبيــة الواجب من خطر على النفس والقلب . . . . تاجوج إذن رجل شريف كريم على نفسه لا يحب أن يقال وعد فلم يبر بالوعد ، وخاف أن تنبذه قبيلته إذا ما سعى إلى نقض العهد . .

* * *

مضى محلّق تعساً مولها كالمجنون فى ليلاه يذيع الشعر السودانى الرقيق ، ينطق قلبه شعراً لا يحسه إلا عاشق مفتون ، يتنقل بين البيد والحضر ، لا يذكر مالا ولا جاها وإنما يذكر إذا أقبل الليل أو استيقظ النهار تلك التى ملكت عليه حسه وأضاع مودتها فى سبيل لذة فارغة يشبع فيها النظر لمحة خاطفة ؛ يذكر أياماً عزت نفسه بها ، وزاقت حياته معها ، ورفّ عليه متاع من السماء جعل حياته نعيما وبدل سخطه رضى ، وأتسع أمله فى الله والناس حين اتسع بيته لتاجوج ؛ أما وقد خلا البيت من تاجوج فقد غضب الله وصدف عنه الناس فهو يجوب الصحارى والفلال يردد شعره فلا يجد معينا

أو مترحما إلا صدى الصوت الخافت الحزين كأنه
لا يريد أن يبلغ الناس حسرته بل يحتبس فى قلب
صاحبه المكلوم .

* * *

كانت عفة تاجوج أحسن الأمثال عند السودانيين
يتناقلونها جيلا بعد جيل ، يذكرونها فى البوادى ويكبرونها
فى الحواضر ويرفعونها فوق التهم ، وترقى بهم قصتها إلى
نحو من الذكرى الحلوة الجميلة ، يعرفونها فى اشعار محلق
حين يغنيها السودانيون فى كل صقع وناد، ويروون عفتها
وطهارتها ، جمالها وسحرها فى هذه المعانى التى يتنادر بها
الشعر والأدب السودانى ، وقد أرضى السودانيين أن
يكون محلق زوح تاجوج حتى إذا طلقها ضرب مثلا
للرجل الكريم حين يكبر الحب عن الهوان ويرفع
العشق عن العار ، وينتقم للهوى العفيف من الهوى
الوضيع وينال لحبيبته من نفسه ، وينصب من
ضميره قاضيا يرد اعتبارها ، ويشغل حياته بالآلام لعلها
أن تمسح من ماضيه هذا السواد الذى خطته زيارة

هذه الحاضرة الشرقية التى دعته إلى الزلل وركبته مواضع الابتذال. . . .

كان محلّـق فارساً شجاعاً مقداماً ، قد أغاظه أشد الغيظ أن تتزوج تاجوج رجلاً من عيون الحُـمُـران، مهما يعظم شأنه ويعلو قدره فهو دونه فى العلم والحجى ، ودونه فى قطع المفاوز وبلوغ المنى ؛ فكان يتربص به فيجرده مما يملك من متاع ومال حتى تذاع فعلته عند حبيبته ، فأذا علم أن زوجة الأمس وحبيبة القلب قد ألمت لفعلته رد المسلوب إلى صاحبه لعلها أن ترضى ، ولعلها تحس أنه لا يزال يذكرها وفى ذلك بعض العزاء . . . . كان يعمد إلى هذا مضطراً اليه لاحباً فى السلب والنهب بل رغبة فى أن تصله هذه الأمور المصطنعة بحبال صاحبته فينال عفوها ، لعل فى عفوها عن هذه الصغائر عفواً عن الـكبيرة التى ارتـكبها فى ساعة النزق وطيش الشباب

* * *

كان محلّـق مرهف الحس ، دقيق القلب ، رقيق الحاشـــية ، لم يسعفه جسمه الفاره حين ألم به المرض

وانتابته الوجيعة فمرض مرة ثم شفى ، ثم عاوده المرض فى عنف وقسوة كأنه يطهره من رجسه الخفيف . . . وكان محلق شديد المراس يدافع المرض وينتصر عليه بيد أن العلة لم تكن رفيقة به ولا عطوفاً عليه فأقبلت كأنها الجبل لا يحتملها جسم مهما فره وطال ، وأحس الشاعر المولّـه أن شيئاً ثقيلا عليه نزل به لا يحتمله، وأن هذا الطائف الذى يلم بالناس ويعلن عليهم انتهاء العمر وقضاء الله قد أفسح الخطى اليه لا يمهله مهما استمله . . . يطارده ويحاوره . . . فأسر محلّـق إلى أهله وعشيرته أنه يودع الحياة فيود لو يودعها فى تاجوج! . . . وتمنى عليهم أن يهبوه فى لحظته الأخيرة أثارة من حبهم فيدلوا صاحبته على قضاء الله فيه . . . لعلها تتفضل بزيارته فأنه يريد أن يستقبل ربه من خلال عينيها ويترك روحه فى أنفاسها... وأحست العشيرة أن عزيزاً من كرامها قد ذل . . . والسودانيون لا يردون عزيزاً عن رغبته ولا يقفون لـكريم فى حاجة .

* * *

وخفت تاجوح إلى حبيب القلب ، وسعت اليه مضطربة ترجو من سعيها أن ترد اليه الروح .... وتعتذر عن قسوتها بدموعها ، لعل فى ذلك شفاء له وبرءاً من سقامه.... فلما دنت من سريره ونساء القبيلة حوله تحولت اليها أبصارهن زائغة، فسألت أين يكون حبيبها من الحياة؟

قلن . . . . البقية لله . . . .

* * *

قالوا . . . ثم أسرت تاجوج فيمن أسر فى حرب بين « الهدندوة » وبنى حمران كانت الكفة للهدندوة ؛ واختلف المنتصرون على تاجوج لمن تكون ؟

وكاد الحسام أن يحل الخلاف . . . . وكادت القبيلة أن تتوزع أفراداً وشيعا ، وينقلب انتصارهم خزياً وعاراً ويتنادر الناس بأن الهدندوة قد توزعوا من أجل امرأة وتفرقوا فى سبيل تاجوج . . . .

ونادى شيخهم عليها فلما أطلت من خبائها طعنها حتى يخلص من فتنتها . . .

وماتت تاجوج وإن بقيت تحيا فتنة الأجيال وذكرى الحب والشعر والجمال .

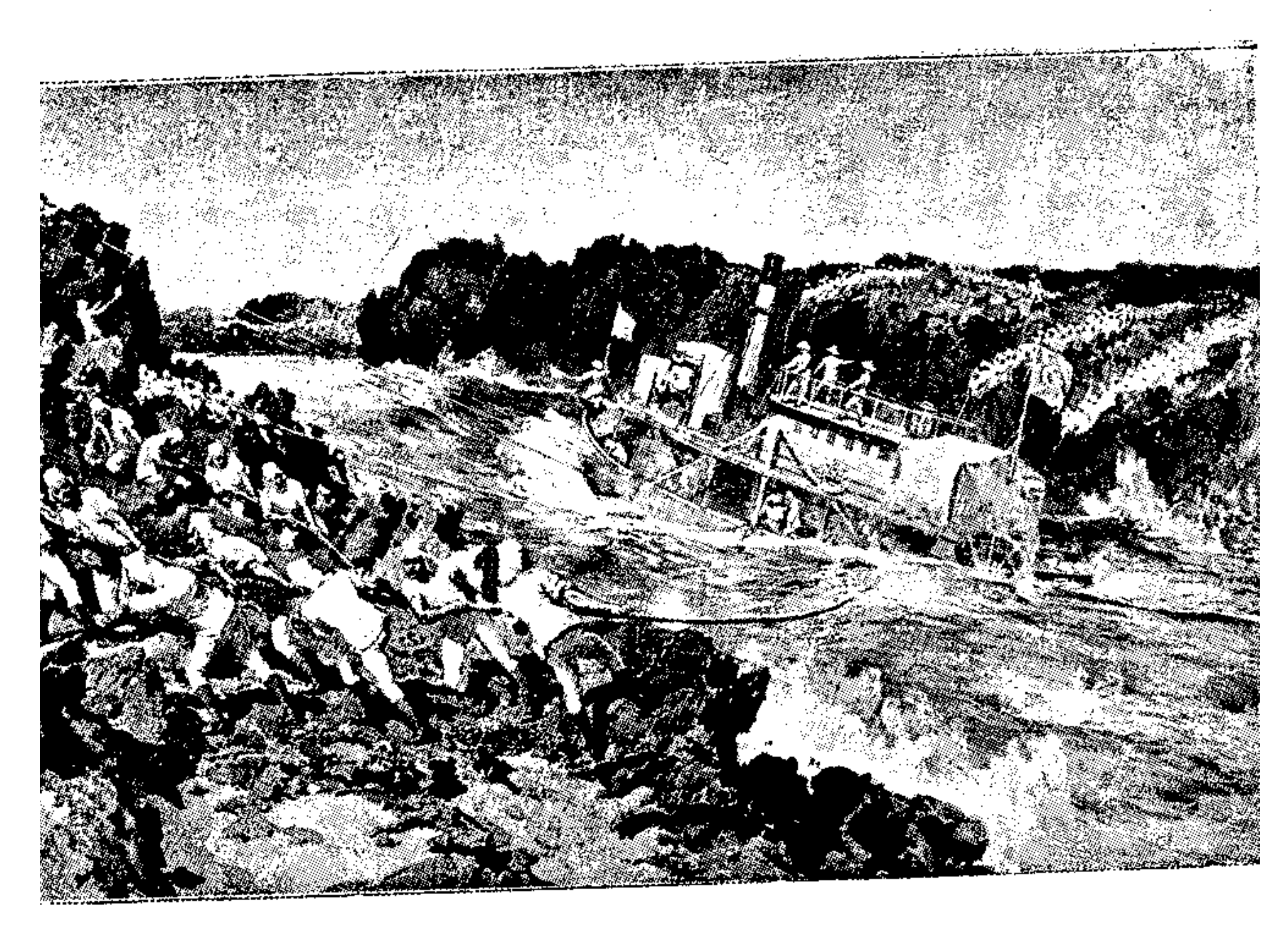
« فى هذا الفصل بعض ألفاظهم وأمثالهم وأحاجيهم وألغازهم وأغانيهم ، ذكرناها لندلك على معانى الحياة فى اعتبارهم ، وهى أقرب ما تكون لنا فى مجال القول عندنا » (١)

العربى السودانى	العربى الفصيح	العربى السودانى	العربى الفصيح
اسمك منو	ما اسمك	سمح بالحيل	جميل جداً
ارجانى	انتظرنى	شال المكان	ذهب إليه
الأضينه	الجبان	البقعة	العاصمة
البكا	المأتم	برىء	حاشا
العوين	الأولاد	التكل	الكوخ
تدور شنو	ماذا تريد	القلعة	الهضبة
الجلابة	التجار — القافلة	الكفريات	العاديات
جت براها	جاءت من نفسها	الكاره	الشكنة
جنب ساكت	الولد	كعب	بطال
الجنى	استرح — اصمت	كورك	رفع صوته
الحلة	القرية	كيفنك	كيف أنت
الملقة	السير ساعة	الحبوبة	الجدة
المشرع	المرفأ	حبابك عشرة	مرحباً بك
متين عرّست	متى تزوجت	ما بخبر	لا أعلم
الديم	المعسكر	نضم	تكلم
الزول	الرجل	هسع	هذه الساعة
السرف	نبع ماء جار	هوى	أداة نداء
سوط المطر	قوس قزح	الوطا	الأرض
الهف	الحنطة	الكمف	العبد
الحوم	الزيارة		

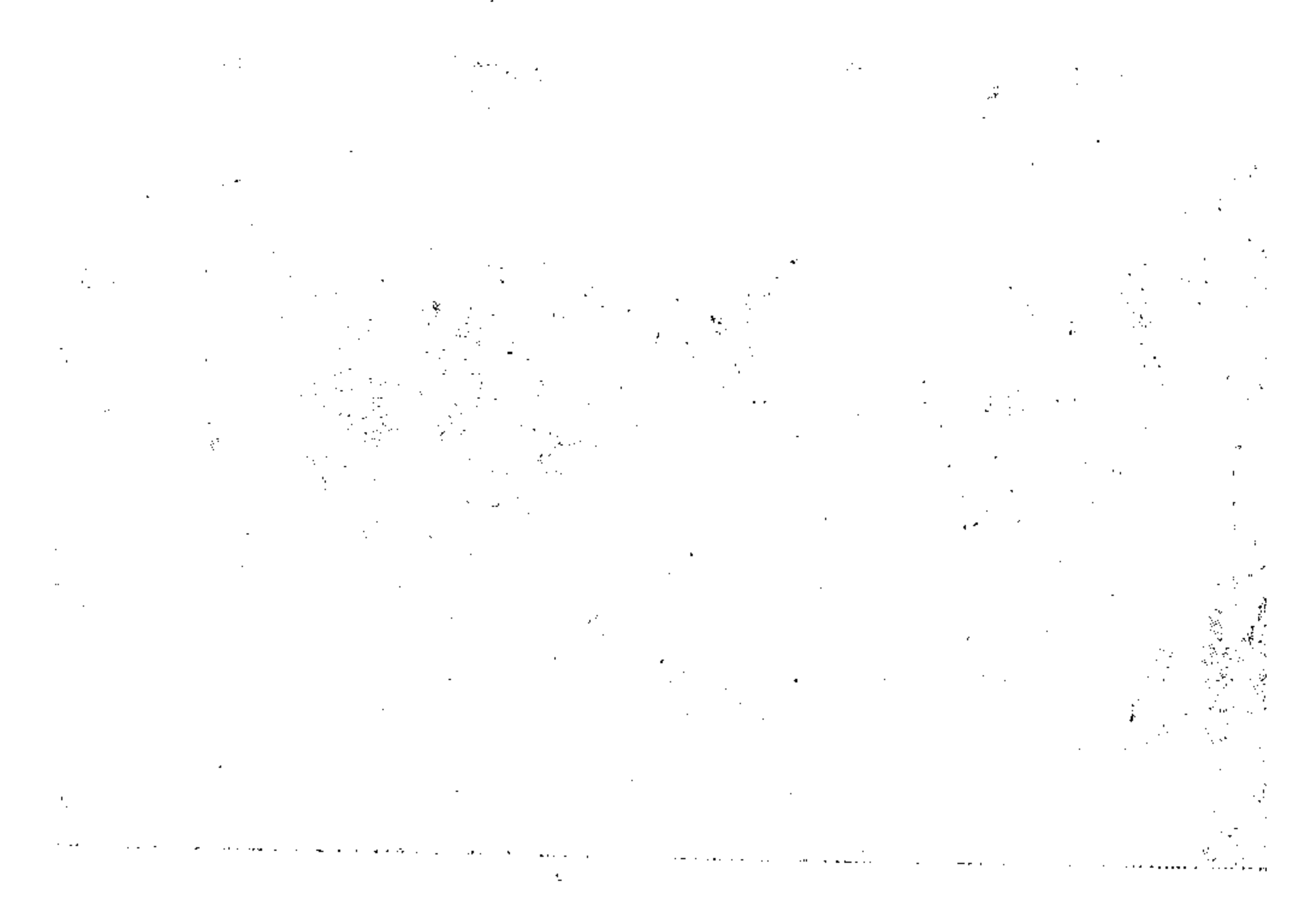
(١) « أمثال العوام فى مصر والسودان والشام » لنعوم شقير

أمثالهم

الأبرة ما بتشيل خيطين والقلب ما بيسع اثنين
احترام النسب عند اللئام أربعين عام وعند الكرام مدة الدوام
الأخ واحد من اليدين
أخذ الثار ينفى العار
أربط صباعك صحيح لا يدمى ولا يقيح
أرقد دافى تقوم متعافى
الأصبع الواحد ما بيغطى الوجه
أعمل معروف ووادية البحر
اللى تقوم ذقنه قبل شواربه شاور المره ولا تشاوره !
اللى عنده الدقيق ما بيعدم النار
اللى ما فيها شق ما بتقول طق
اللى ما يبلع ريق على ريق ما بيمسك رفيق
اللى ما بيجيب ثاره الحمار خاله !
اللى ما يستحمل الشر ما يستحمل الخير



الجنود المصريون يسحبون السفن فوق الشلالات



أمسك فى الكذب لما يوصلك الصح
ان كثرت عليك الهموم أرقد نوم !
ايد الميرى طويله !
بيت الشوره ما خرب
بيت عمال ولا بيت مال
البيت يشيل مائة راجل ما يشيل امرأتين
بركة الكلام فى قلته
بعد أمك وأبوك الأهل جيران
البلد ما يقتلها إلا ولدها !
تاجران لا يربحان تاجر الكيف وتاجر الهف
تربى هزيل الجمال ينفعك تربى هزيل الرجال يقلعك !
تزوجوا فقرا يغنيكم الله وسافروا مرضى يشفيكم الله
الحتة العفنة فى اللحم تعفنه كله
الحق مر
الحمار شكروه رقد !
خصام الرجل الدكر . ولا صحبة الرجل الأضينة
الخيل ظهورها عز وبطونها كنز
الدّين ولو درهمين يسود الخدين !

رفيق اثنين كذاب وركاب سرجين وقاع
صاحبك إن أباك قلل عليه الحوم وبطنك إن وجعك
كتّر عليه الصوم
الطبع جبل لا يتحول
الطول فاقة والقصر عاقة !
ظلم البهايم حرام
الغرض مرض
عصاية العز لا تضرب تنكسر
الغنى فى القناعة والحرب صبر ساعة
الفاس ما بتقطع عودها
فاكهة الرفيق أخير من رأس رقيق
القلب يرى قبل العين
القمر إن ضوّى لا فايده فى النجوم
كثرة الطله ترخص أعز خلق الله
كل وسط ونام طرف
الماء ما بتروب والفاجرة ما بتوب
مائة صاحب ولا عدو واحد
المجنون يضحك على طبيبه !

المره مكسورة الجناح

المريض يكره دواه

من خلص دينه نامت عينه

ناسب أحسن منك وعاشر أحسن منك

الميته ولا شماتة الاعدا

وجوه الرجال خناجر

لاقيني ولا تغديني

يا حافر حفرة السوء وسع مراقدها

يدُ الحر ميزان

« اطلب الشيء بثلاثة : باللين فأذا لم تظفر به فبالمال ، فأذا لم تفلح فبالحرب ، فأذا لم تستطع الحرب وعدمت المال فعد إلى اللين فأنه ميسور لكل إنسان ، فأذا لم تنجح فدع ما أنت طالبه »

أحاجيهم وألغازهم (١)

ازرق كحيل راكب على ثلاثة خيل	« يعنى »	القدر موضوعة على ثلاث أثافى
ترن ترن عند البحر حرن	»	الحذاء فانه يخلع عند الخوض فى الماء
دخل فى القش ما قال كش	»	الظل
سوط الملك وقع مين يشيله	»	الثعبان
ظله فى بطنه	»	الحفرة
ظريف وطفيلى	»	ظل الانسان
عنيزته ماسكها من دنيبها وهى ترعى	»	الموسى
هو بارك وفى السماء يعارك	»	المدخنة

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير

بعض اغانيهم

قال عبد الله أبو سن فى محبوبته « نجوم » :

إسم أم شلخ نجوم نزلته فى اليوميـــة
بتحصن بهِ فى الأوقات صباح وعشيّة
كل من جاب سلامك يلقى عندى هدية
لكون الجمال عنـــد الله له مزيّة
معـــدومة النظير فى الدنيا بالكلية
بيتك لى جنّة وحضرتك حوريّة

* * *

وقيل فى المدح :

ما بيطارد كل الزّلـــة وفوق البشاوات هو معلى
يأمر بالشنق والحلـّة وماشوف كيفه حاشا وكلاّ

* * *

إلى هذا الغناء المتواضع توجد أنواع أخرى من الأغانى التى قيلت فى النبى (صلعم) وفى المهدى ورجاله ، وهى الرغم من اضطرابها فى الأسلوب والمعانى اضطراباً لامثيل له فى الآداب المعروفة لنا إلا أنها تضم أحياناً بين أعطافها كثيراً من التفكير المستقيم والرأى الصائب .

أبطالهم

عرفت فى الفصول السياسية أن السودان لم يكن خلواً من المجاهدين ، وقد أظهر عام ١٩٢٤ روح الوحدة فى نفوس المواطنين من أهل الجنوب ، على أن ثورة السودان على الانجليز فى تلك السنة تمتاز باجماع الطبقات السودانية عليها، ساهم فيها العامة فرفعت من قدرهم لأنهم أعلنوا بثورتهم صدق وطنيتهم وعميق إخلاصهم لبلادهم ، وساهم فيها الخاصة فأكبرت الثورة نفسها حيث أحسها الشعب بأسره ، وأرفع الثورات وأعظمها خطراً ما جاهدت فيها جميع الطبقات .

ولا أعتقد أن هذا الكتاب يستحق عطفاً أو تقديراً إذا خلا من الحديث عن أنصار الوحدة الذين كانوا علماً فى الثورة الأخيرة المعروفة ، فالحديث عن هؤلاء الأبطال حديث عن الغاية المرجوة من وحدة القطرين .

وعندى أن أجمل تحية نرفعها لمواطنى السودان أن نذكر فى مثل هذا الكتاب أبطالهم فى الجهاد وعظماءهم فى التضحية وهم أبطالنا وعظماؤنا على كل حال . . .

على محمد البنا

هو من مجاهدى السودان الأبرار الذين ملك حب مصر أفئدتهم ، وطبعوا على الوفاء بها وجعلوا نفوسهم لها ، ومشى الاخلاص فى دمائهم فرفعهم فى عيون مواطنيهم ، وسما بهم فوق رءوسنا . . .

هو من فتيان عرب السودان انحدر من بيت رفيع مشهور بالعلم والفضل ، مفطور على المروءة ، مطبوع على الولاء للدين والوطن ، هو ابن السيد الحسيب النسيب المرحوم الشيخ عمر البنا كبير مفتشى المحاكم الشرعية بالسودان سابقاً .

تخرج فى المدرسة الحربية عام ١٩١٩ ، وألحق بالأورطة العاشرة السودانية برتبة ملازم ثان ، ثم انتخب معلماً لضرب النار ومدفع الماكينة بمدرسة ضرب نار الجيش المصرى ، وأخيراً انتهى به المطاف الى الأورطة الثانية عشر السودانية بملكال .

وفى سبتمبر ١٩٢٤ كانت الحياة السياسية فى السودان عنيفة تضطرم فى صمت وسكون ، وكان الضباط السودانيون أشد الناس اضطراماً وأكثرهم وفاء لمصر والمصريين ، وفى هذه الحياة المضطرمة أتهم الضابط على محمد البنا افندى هو وثلاثة من زملائه بأنهم يحرضون الجنود على التعلق بملك مصر والهتاف له كما اتهموا بالولاء السافر لسعد زغلول زعيم النيل .

فأبعد عبد العزيز شريف افندى وعزيز حيدر افندى (وهما ضمن ضباطنا المصريين الآن) الى مصر وهما شريكان لعلى محمد البنا افندى فى تهمة الوفاء لمصر ومليكها وزعيمها المبرور ، أما رابع هذه الجماعة النبيلة وهو محمود محمد الندمى افندى (وهو فى مصر أيضاً) فنقل للاورطة العاشرة السودانية بتالودى . . .

وفى ديسمبر ١٩٢٤ حوكم على محمد البنا افندى أمام مجلس عسكرى قضى بأعدامه رمياً بالرصاص لاشتراكه مع الضباط والجنود السودانية فى الانضمام الى إخوانهم المصريين ورغبتهم فى السفر معهم الى مصر ، فاعترضتهم وهم فى طريقهم إلى هذه الغاية قوة انجليزية وأمطرتهم

وابلا من الرصاص لتحول بينهم وبين تحقيق أملهم المنشود ، فردوا على الاعتداء بمثله فكانت حادثة الخرطوم المشهورة .

وقيد محمد على البنا فى رباطة جأش الى ساحة الأعدام ، وبينما هو يستعد للقدر المحتوم جاء النبأ باستبدال هذا الحكم القاسى بخمس عشرة سنة يقضيها بين سجنى الخرطوم وبحر الغزال ، وفى سنة ١٩٣٤ أفرج عنه وعوفى من السجن بقية المدة كأرادة السير ستيوارت سايمز حاكم السودان العام ، وكان صاحبنا قد قضى عشر سنوات فى السجن مع أشغالها الشاقة فى رضى واطمئنان .

وفى أغسطس ١٩٣٤ أقبل هذا المجاهد الكريم الى مصر وظل يسعى فترة من الزمن حتى وفق الى عمل كتابى بمصلحة الأملاك الأميرية بمرتب لا يتجاوز إثنى عشر جنيها فى الشهر ، وكان هذا بئس الجزاء ! . .

وفى ١٥ أغسطس ١٩٣٦ قرر مجلس الوزراء إنصاف الرجل فعينه ضابطاً فى مصلحة خفر السواحل برتبة اليوزباشى تقديراً لتاريخه العظيم وكان فى ذلك بعض العزاء .

على عبد اللطيف

هو من القادة الذين عرفهم السودانيون فى حرية الفكر وصفاء السريرة وقوة اليقين ، لا التواء فى قصده ولا غاية لنفسه ، فقد جعلها لبلاده متاعاً ولوحدة النيل تحية فكان نعم المواطن الكريم . . .

هو سودانى من أصل قيل إنه زنجى التحق بكلية غردون فى الخرطوم ونهل منها سنوات ثم انتقل إلى المدرسة الحربية التى أنشئت بعد الفتح الثانى لتخرج الضباط السودانيين ، فلما جاز امتحانها النهائى ألحق بالجيش المصرى عام ١٩١٤ فى الأورطة الحادية عشرة السودانية ثم نقل منها إلى حكومة السودان وبقى فيها إلى أن أعيد إلى خدمة الجيش المصرى هناك

وفى مايو ١٩٢٢ حكم عليه بالسجن اثنى عشر شهراً وفصل من خدمة الجيش لخروجه على حكومة السودان وانتقاده لأعمالها ، فقد وجد أن اتفاقية ١٨٩٩ لا تنفذ

إلا فى صالح الأنجليز ، وليس هناك أمل فى أن تسمح هذه الاتفاقية بالوحدة المنشودة التى كانت تتردد فى نفسه ، لأن الحكومة القائمة كانت تعمل ما وسعها الجهد على أن تبعد الشقة بين الشقيقين . . .

جهر الضابط الحر بالنقد علناً وحمل حملة عنيفة على سياسة الأنجليز ، ونادى بصراحة السودانى الجرىء أن لا بد من وحدة النيل تحت العلم المصرى ، وأن لا بد أن تستقل مصر والسودان استقلالا تاماً ؛ وكان فى أسلوبه ينسج على منوال زعيم مصر سعد زغلول . . .

قضى على عبد اللطيف افندى مدة السجن فى ثبات وإيمان ثم أفرج عنه ١٩٢٣ ، ومضى على خطته التى رفت من أجلها وسجن ، وفى ١٩٢٤ أنتخب رئيساً لجمعية اللواء الأبيض (١) المشهورة التى جعلت خطتها الأولى أن تستقل مصر والسودان . . .

وقامت الثورة التى حدثتك عنها فى الفصول السياسية سنة ١٩٢٤ ، وقد علمت أن الذين قاموا بالثورة من

(١) كتاب السودان للأستاذ عبد الله حسين وكتاب آثار الزعيم الخالد سعد زغلول للأستاذ الجزيرى

السودانيين ، واشتركت جمعية اللواء الأبيض بزعامة رئيسها على عبد اللطيف فى هذه الثورة ، فقبض على أعضائها جميعاً ومن بينهم رئيسها وحكم عليه بالسجن ونال البطل على عبد اللطيف جزاءه عشر سنوات فى السجون إنتهت فى ١٩٣٤ ، ولكنه لا يزال فى سجنه بالرغم من انقضاء المدة وذلك لأنهم يزعمون أن بعقله خللا ، ولم يمت كما أشيع فى مصر والسودان . . .

هذا بعض تاريخ هذا الرجل الأبى الكريم ، مثال من الأمثلة التى ينبغى أن يتوارثها الخلف عن السلف عبرة وذكرى . . .

أفراحهم (١)

سن الزواج عندهم من الخمس عشرة سنة فما فوق للرجال ومن العشر سنين فما فوق للنساء ، ولا بد للطالب من رؤية البنت التى يروم خطبتها ولو بالحيلة ، فأذا حسنت فى عينيه سعى فى استرضاء أهلها وخاصة والدتها وعقد الخطبة بالقول .

ثم يذهب أقاربه إلى بيت أبيها فى يوم معين لكتب الكتاب وتعيين المهر وهم فى الغالب يغلون فى المهر حتى لقد يبلغ خمسمائة وعشر أبقار وعشر جمال وأربعين رأساً من الغنم يقدمها الخطيب ، الثلثين على الفور والثلث الباقى أقساطاً بعد الزواج ، وهم على عادة البجة إذ أن أبا البنت لا بد له من أن يخصها بشىء من ماله وإلا عُيرت به وربما خصها بما يساوى مهر الخطيب أو أكثر ،

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير وهو أفضل مرجع لحياتهم الاجتماعية لو انه خلص من شوائب التحيز ولم يضرب على النغمة التى ترضى الأنجليز وتسىء الى وحدة القطرين

ولذلك ترى الكثير من النساء يتركن عذارى لعدم اقتدار الرجال على صداقهن .

وقد سعى بعض ولاة الفتح الأول مثل أحمد باشا أبو ودان وغيره فى تخفيض مهر البنات فجعلوه من ٧٥ إلى ١٥٠ قرشاً ، وحضوا على الزواج وكذلك فعل محمد أحمد المهدى فجعل مهر الثيب خمسة ريالات ومهر البكر عشرة ، ولكن الأهالى ما لبثوا أن عادوا إلى عادتهم القديمة وعاد البنات إلى الكساد .

وعرب السودان يحترمون النسب جداً وينزلونه المنزلة الأولى فى تزويج بناتهم فلقد يزوجون رجلا ذا نسب لا يملك شيئاً ولايزوجون رجلا مثرياً لا نسب له ؛ وإذا حل بأرضهم رجل شريف يرجع بنسبه إلى النبى (صلعم) أو الصحابة بالغوا فى إكرامه وزوجوه بناتهم بلا مهر رغبة فى التقرب منه . وهم أيضاً يتبركون برجال العلم والصلاح ويزوجونهم بلا مهر وعند اتفاق الفريقين على المهر يكتبون الكتاب ويعينون الدخلة فى يوم يتفاءلون به ، وقبل حلول اليوم المعين بأسبوع يعد العريس الذبائح وشيئاً من الذرة والروائح العطرية

والكحل والحناء والأكسيـــة للعروس وماشـطتها ووزيرتها ، ولكن من أقاربها الأخصاء ؛ ويدعون بنات البلدة فيحملن هذه الأشياء على رؤوسهن فى أطباق مغطاة بالمكبات ،ويسير أمامهن النساء يضربن الدفوف،ويرقصن ويغنين ووراءهن الشباب يرقصون ويتباطنون بالسياط إلى أن يبلغوا بيت العروس فيستقبلهم أهلها بالترحيب ويقدمون لهم الطعام والشراب فيأكلون ويشربون ثم ينصرفون .

ومن ثمّ يشرع أهل العروس فى الاستعداد فيضعون العروس فى مكان منفرد مع بعض قريباتها ويسلمونها إلى الماشطة فتمشط شعرها وتضفره ، وتطيبه وتلبسها أغلى الثياب من وسطها فنازلا وأما صدرها ورأسها فلا يسترهما إلا الحلى ؛ أما العريس فيلبس ثوباً بسيطا بحاشية من حرير ، ويلبس فى يده سواراً من الحرير فيه خرزة خضراء ، وسواراً عريضاً من الفضة أو الذهب ، وفى عنقه طوقاً من الذهب ، وهـذا هو اللبس المعروف عندهم ، ويبقى عليه هذا اللبس من سبعة أيام إلى أربعين يوماً بعد الزواج وذلك لمنع الاصابة بالعين !

وفى اليوم المعين للدخلة يجتمع أهل العريس وخلانه نساء ورجالا فى منزله فيزفونه على فرس إلى بيت العروس فيقود الفرس بنتان بنت عن اليمين وبنت عن الشمال ، وتسير النساء أمامه يغنين وينقرن الدفوف والطبول والرجال وراءهم يتباطنون والبنات يرقصن الرقص المعروف عندهم ، وهو الرقص بخفة ورشاقة ، والعريس يهز سوطه فى الهواء استحساناً للراقصات والمغنيات ، ويسير الموكب الهوينا إلى أن يصل إلى بيت العروس فيستقبلهم أهلها بالترحيب والأكرام .

ثم يزفون العروس فى منزلها وهو الغالب أو يزفونها فى شوارع البلدة تحف بها البنات وبأيديهن الشموع ثم يعدن بها إلى المنزل فيجلسنها على عنجريب فى مكان أعد لها ، ويجلس حولها البنات والنساء والماشطة (١) ووزيرتاها .

وبعد العشاء يدخل العريس عليهن ومعه شابان من أصحابه يعرفان بالوزيرين فيصفق له النساء ترحيباً به ويجلسنه مع وزيريه على عنجريب أعد له ؛ ثم يقوم

(١) يقال عنها فى بيوتنا البلانه !

العريس فيتحف الماشطة والوزيرتين بهدية من المال ، ويأتى إلى عروسه فيقطع رهطها ، ويلبسها القرباب ، ثم يشرع فى مداعبتها وترقيصها رقصاً يعرف عندهم بالجلع (١) وذلك بأن يغمز خنصرها ويخز خاصرتيها بظفر يربيه ويحدده لهذه الغاية فتتلوى العروس إذ ذاك وتتحرك حركات رشيقة بحيث أنها إذا كانت موجهة له ووخزها بظفره تنقلب بخفة ورشاقة فتوليه ظهرها وتصيح صياحاً عالياً قائلة واى . . . واى متتبعة ذلك بأنات رخيمة ، وشهيق مستعذب ، وفى أثناء ذلك تغنى النساء غناء يصفن فيه العريس بالسخاء والمروءة ، والعروس بالجمال ورفعة النسب .

ويبقى أهل العريس فى بيت العروس من ثلاثة أيام إلى سبعة ، وأما العريس ، فيبقى مع عروسه فى بيت أبيها إلى أن تلد فيذهب بها إلى أهله

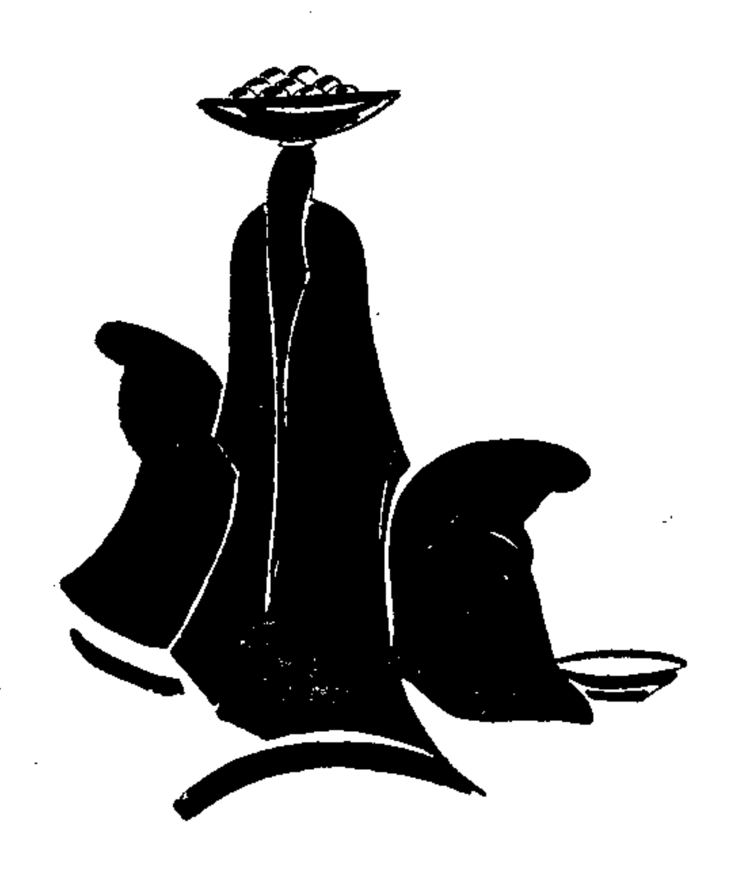
وبعد الأربعين يوماً يخرج العريس إلى السوق ويرسل إلى عروسه أفخر ما يجده فيها من اللحوم والخضر والفاكهة فتدعو العروس صديقاتها ، وتولم لهن وليمة من

(١) الدلع !

هدايا العريس وهو يوم يعرف فيه كرم العريس وسخاؤه

وهم يختنون أولادهم ذكوراً وإناثاً ، ولكنهم لا يحبون الطهور الباكر ، فقلما يختنونهم قبل السنة السابعة

ويجوز لمن توفيت امرأته أن يتزوج أختها بمهرها ولكن لا بد له من موافقة أبيها قبل دفنها ، فهو يمسك قائمة النعش الذى تحمل عليه امرأته ،ويلح على أبيها بأن يعطيه أختها عوضاً ، فيجيبه أبوها إلى ذلك وخاصة إذا كان له أولاد .



أحزانهم

لا تفترق أحزان السودانيين عن أحزان المصريين فى الموضوع وإن اختلفت فى الشكل كما يقول أهل القانون ، فالميت حين تفارقه روحه عندنا يوضع على مراتب فى الأرض بينما يمدده السودانيون على عنجريب مرتفع عنها، وحين يقضى على عزيز عندهم يصيح نساؤهم وينتحبن ويحثين التراب ويجلسن حوله للبكاء والنحيب كعادة العامة من المصريين .

أما الرجال فينعونه إلى البلاد المجاورة ويجلسون فى فناء الدار للقيام بواجب العزاء ، ويأخذ النساء فى الضرب على طست من النحاس ضرباً حزيناً يسترق الدموع والآهات ، ثم يشرعن فى أسلوبهن المعروف يعددن مناقب الفقيد العزيز ؛ وكما يحدث فى مصر تستقبل السيدات من أهل الميت صديقاتهن بالنواح كلما أقبلن لتقديم هذا الواجب ، فأن كانت إحدى المعزيات حديثة

عهد بحزن على فقيد بدأ النادبات يندبن هذا الفقيد و يعددن مناقبه تحية منهن لمن عرفت الواجب وقدمت العزاء !

وفى أثناء ذلك يرقص الحزانى بالسيوف والعصى ويصحن صيحات تستجلب العطف و تفتت الأكباد . .

أما « عديدهن » ففيه بعض ألفاظ لا بأس من ذكرها ، كقولهن واسجماه ، واحزناه، وامصيبتاه ، يا حليلك هاى ، يا شديد الحيل ، يا جمل الشيل ، يا مقنع الكاشفات ، يا راجل الحكام .

أما الرجال فقد اعتادوا بعد أن يستقر بهم المقام فى فناء الدار أن يهللوا ويكبروا بقولهم « لا إله إلا الله محمد رسوله الله » سبعين ألف مرة أو يقرءون قوله تعالى « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » مائة ألف مرة . . .



علاج الجروح : إذا جرح أحـدهم لأمر ما صب على الجرح سمنا مغلياً ثم يعقبون على ذلك بغمس قطنة فى سمن بارد ويضعونها على المكان المجروح ويربطونه ثم يكررون هذا العلاج مدة أيام مراعين أصدق طرق النظافة إلى أن يبرأ الجرح من السقام ، أما الجروح الخفيفة فعلاجها بسيط ، يرشون عليها ملحاً أو بناً ثم يضعون عليها سمناً بارداً ، ومن العجيب حقاً أن علاجهم لجروحهم منتج ومفيد بل سريع المفعول يكاد يكون الشفاء واقعاً فى كل حالة

شربة السمن : هى عبارة عن رطل من السمن يسخن ويشرب فى الصباح المبكر على الريق ولا يشرب بعدها ماء بارد مطلقاً وهى عظيمة ولها أثر محمود

شربة السنامكى (السلامكى) : يشرب منقوعها مع التمر هندى والسكر وهى معروفة فى بلادنا وشديدة المفعول

شربة الجردق : وهى تراب معدنى يعالجون به المغص ووجع المعدة والأمعاء ، ويعالجون بها الزهرى أيضاً

ويهتم بالمريض الأسرة كلها ، وفى سؤالهم عليه بعض ألفاظ لطيفة أقرب إلى اللغة العربية كقولهم عسى طيب النهار دا . . . المولى يعفو عنه إن شاء الله ؛ وإذا نزل بهم وباء واشتد وأثقل عليهم يطرف الأولاد فى الشوارع منادين « يالطيف لم تزل ألطف بنا فيما نزل» أو « ياخالقنا نحن ضقنا » !



مجالسهم

يقضون أوقات سمرهم فى فناء منازلهم لا يعرفون جلسات القهوة ولا سمر النوادى ، فكل بيت عندهم ناد للأسرة يجمع أحسن ماتجمعه النوادى والقهوات ، ففناء الدار عامر بالأشجار المورقة التى تظللهم فى الهجيرة وتغنيهم عن السقف حين تعوزهم السقوف ، وهم فى الغالب يجلسون على (عنجريبات) القرفصاء أو مربعين على أبراش فى الأرض وقلما يستعملون فى جلستهم الكراسى وإن كان خاصتهم يؤثرونها فى مجالسهم وبيوتهم .

ولجلوسهم مع ملوكهم آداب معروفة تلحظها فى هذا الاحترام العميق المشهور عنهم ، والمعروف عند الأمم جميعاً فى احترام الملوك والحكام .

ويلى الملوك فى الاحترام والتقدير العلماء ثم الشيوخ فأذا حضر العامة مجالس هؤلاء العلماء والشيوخ جلسوا فى الأرض على ركبهم تأدباً واعتباراً للسادة الجالسين

ولا يتكلم الشاب فى حضرة أبيه أو أخيه الأكبر ولو كان أفصح لساناً وأعرف بآداب المجالسة والحديث ؛ وأظهر ما فيهم أن حكم الجماعة فى مجالسهم أفضل من حكم الفرد كما تنص الشريعة الأسلامية فى جميع الأحكام التى تصدر عن مجالسهم .

وسيدات البيوت الرفيعة لا يجالسن الرجال إلا إذا كانوا من الأهل الأقربين . وإذا طلبت امرأة إلى مجلس رجال لأداء شهادة أو تقرير واقعة تلثمت بثوبها فلا يظهر من وجهها غير عينيها وهما فى أكثر الاحيان أدعى إلى السحر والفتنة فى غيبة الوجه الملفوف ! ثم تجلس السيدة مطرقة فى الارض وتتكلم بصوت خافت فى شىء من الانكسار ؛ وإذا زارها رجل فى بيتها حدثته من وراء جدار ؛ وإذا مرت بمجلس رجال خلعت نعليها وسترت وجهها، أما الجارية فتخلع نعليها وتحسر عن رأسها ، وإذا جلس الرجال على جانبى طريق فهى لا تجرؤ على المرور بينهم بل لا بد أن يقوم فريق منهم إلى الجانب الآخر حتى تستطيع أن تحتمل حياءها فى ساعة المرور ! وإذا

كانت راكبة ترجلت عن دابتها وسارت على قدميها حتى إذا انتهت من مجلس الرجال عادت إلى دابتها .

ومن آداب الشارع ألا تسير مسرعا بل فى تؤدة واتزان ، وألا تأكل مهما يكن بك سغب ، كما لا ينبغى أن تصفر أو تضحك بصوت عال أو تغنى أو تبول إلى جانب الطريق ، كما أن الدائن لا يطالب مدينه فى الشارع مطلقاً كما لا يطالبه فى الفجر أو بعد الغروب فى أى مكان !



سلامهم (١)

وسلامهم المصافحة باليد . وإذا اجتمع صاحبان بعد فراق طويل تعانقا بالأكتاف وذلك بأن يجعل كل منهما يديه على كتف الآخر ويضمه إلى صدره وينقل رأسه من كتف إلى كتف مرتين أو أكثر ثم يأخذ يد رفيقه ويقبلها .

وإذا كان أحدهما قد فقد حبيباً فى أثناء فراقهما فعند اللقاء يبسط كل منهما يديه رافعاً إياهما نحو السماء ويقرأ الفاتحة بصوت منخفض ثم يتصافحان ؛ هذا فى سلام الرجال ، أما النساء فسلامهن التقبيل فى الوجه كنساء مصر والشام ، وأما سلام النساء على الرجال فبين الأقارب تحنى المرأة رأسها للرجل فيقبله وهى تقبل يده ، وإذا كانت المرأة مسنة قبلت رأسه وهو لا يقبلها ، ومن كلامهم فى اللقاء كيف حالك ؟ طيبين مك طيب ؟ طيبين

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير

الحمد لله الله يسلمك . . . كيفنكم (كيف حالكم) —
العويلة والبهيمات كيف حالهم لعل ما عندهم عَوجَه —
الحمد لله تراهم هسّع الله يكفيهم شر المن هنا وجاى .
زريعاتكم كيف أنهن — والله عاد نحمد الله إن ختين
(أى سلمن من الدودة والجراد ما عندهم عوجه) وعند
الوداع يقول الواحد للاخر سلم على اللى قدامك .



شعرهم

عرب السودان عموماً نساء ورجالا حضراً وبادية يدهنون رؤوسهم وأجسادهم بالشحم والسيرج لتخفيف وطأة الحر ، ويتطيبون بالروائح العطرية وأشهر هذه الروائح عندهم المسك والقرنفل والصندل وغيرها ؛ وأحب المركبات العطرية إليهم مركب سائل يسمى الخمرة مؤلف من مقادير معينة من المسك والجلاد والزباد والقرنفل تذاب بماء خشب الصندل وتخمر وتحفظ فى أحقاق هندية محكمة الغطاء ، أما الصابون فقلّ من يستعمله ولا سيما أهل البادية ، فأن أهل البادية الشرقية يغسلون ثيابهم بطرق خاصة وأهل البادية الغربية يغسلونها بقشر الأهليج .

(الدلكة) ومن أشهر عاداتهم « الدلكة » وهى بمثابة الدلك فى الحمامات التركية فهم يأخذون شيئاً من

عجين الذرة ويخلطونه بالماء حتى يصير كالعصيدة ويجمد (الثريد) قليلا بوضعه على الدوكة فوق النار ثم يملأونه فى قدر ، ويوقد نار من خشب الطلح والشاف والكليت فى قدر آخر ويكفأ القـــدر التى فيها العصيد على القدر الموقدة فيها النار حتى تجف العصيدة وتتدخن برائحة الأخشاب المذكورة فيعجنونها بمعجون الدلكة ثم يقرصونها كتلا صغيرة ويدلكون بها . أما معجون الدلكة فمؤلف من دقيق القرنفـل والمحلب وخشب الصندل والظفر ويعرف بالمربوع ويضيفون إليه اللبان أو السنبل فيسمى بالمخموس ، ويضيف الخاصة إليـه الجلاد والزباد والمسك ويعرف بمعجون الخاصة ؛ وهم يدلكون أجسادهم فى كل صباح ومساء قبل النوم وبعده ثم يتطيبون بالخمرة

وذكر بعض الأطباء عدة فوائد صحية للدلكة منها أنها تقوى الأعصاب وتقلل الأفراز الجلدى وتزيل شعر الجسم وتكسبه ملاسة وترطبـة وتخفف حرارته لأن الأجسام السوداء شديدة القابلية لامتصاص الحرارة

(التدخين) وما اختص بالنساء دون الرجال

« التدخين » وهو بمثابة الحمام لهن ، وهـذا الحمام عبارة عن غرفة كثيرة النوافذ فى وسطها حفرة صغيرة وإلى أحد جوانبهادكة عالية فأذا أرادت المرأة التدخين أوقدت فى الحفرة ناراً من خشب الطلح أو الشاف أو الكليت أو غيره من الأخشاب الطيبة الرائحة ، وسدت نوافذ الغرفة إلا نافذة واحدة لخروج الدخان ثم تتجرد من ثيابها وتمسح جسمها بالسيرج ، وتشتمل بشملة من الصوف وتجلس على حافة الحفرة ورجلاها ممدودتان على عود فوق الحفرة ، وتستمر على ذلك إلى أن تخمد النار فيحمى جسمها ويتحلب العرق منه صبياً فتقوم وهى لا تزال مشتملة بشملتها فتستلقى على الدكة وتفتح النوافذ ، واحدة بعد أخرى حتى يخرج الدخان ويجف العرق تدريجا ، فتأتى إحدى الجوارى وتدلكها وتطيبها، ومن خصائص التدخين أنه يكسب المتـدخنة لوناً أصفر ورائحة عطرية مستحبة جداً عند عرب السودان ، وهو نافع لمرض المفاصل والأمراض العصبية

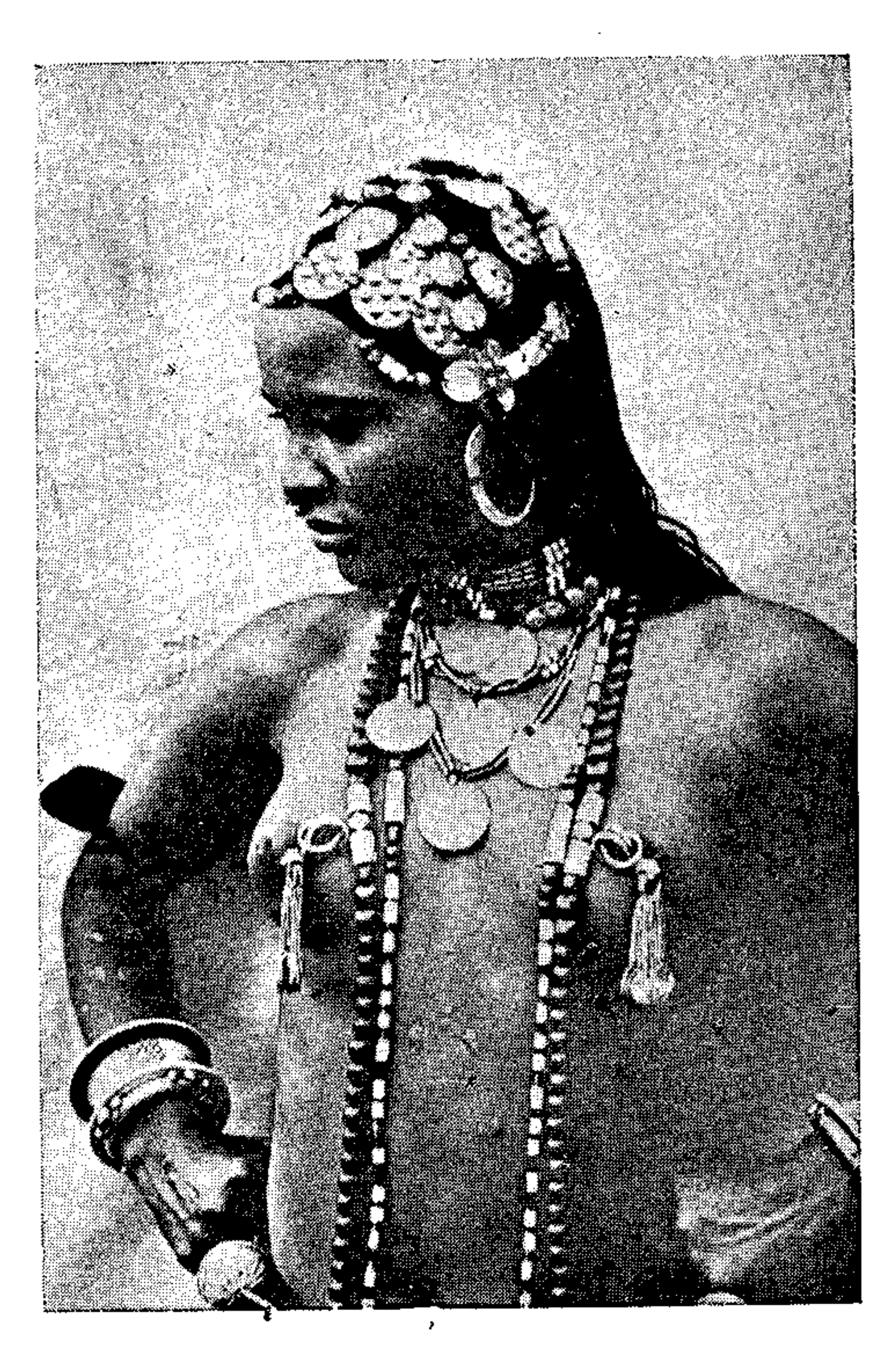
مساكنهم

أكثر أبنية الحضر بالطوب النىء أو بالطوب المعروف عندهم بالجالوس ؛ وقل من يبنى بالطوب المحرق ، وغالب بيوتهم مربع الشكل مسطح السقوف ؛ يسقفونها بخشب النخل أو الدوم أو السنط وما اليها ؛ ويجعلون فوقها شبكة من حبال الشعر أو الحبال المصنوعة من رقيق الدوم مصبوغة باللون الأسود ، ثم يغطونها بالبروش ويضعون فوقها « المطارق » أى العصى واليبيس ثم الطين المصنوع من الزبل والتراب على نسبة الثلثين من الزبل والثلث من التراب ، يوضع فيه الماء مدة أيام حتى يخمر فيطينون به السقف والجدران الأربعة لمنع الوكف ووقايته من الأمطار .

وفى دنقلة حيث يقل وقوع المطر لا يطينون السقوف ولا الجدران . ولكنهم يرفعون السقوف برمتها على

حجارة نحو شبر لوقايتها من الأرضة ، وكلهم يطينون أراضى منازلهم بالطين والرمل، أولا يطينونها، ويبيضون جدرانها أو لا يبيضونها وهو الغالب .

وجميع منازلهم سفلية فلا يبنون دوراً عالياً ولا مآذن لجوامعهم إلا فى النادر ولا يتخدون كنفاً إلا فى المدن الكبيرة ، ولكنهم يحيطون بيوتهم بجدار من شوك فيسمونه « زريبة » أو من خوص فيسمونه « صريفاً » أو من طين أو من طوب نىء فيسمونه حوشاً ، والحوش لا يكون إلا مربعاً أو مربعاً مستطيلا ، فاذا أراد واحد من ذوى اليسار أن يبنى منزلا تاماً يعـــمد إلى قطعة من الأرض مربعة فيحيطها بحوش ارتفاعه نحو قامة ويجعل له باباً واحداً ، ثم يقيم فى وسطه حائطاً فيجعله حوشين ، حوشاً للنساء وهو الداخلى وحوشاً للرجال وهو الخارجى ، ويفتح فى الحائط باباً صغيراً يدخل منه لحوش النساء حيث يبنى منازل لنسائه وجواريه واسطبلا لركائبه ومطبخا ومخزناً للحبوب ، ويبنى عند الباب غرفة لجلوس الخصيان يسمى بالدهليز الداخلانى ، وغرفة بالقرب منها لجلوسه مع نسائه .



جمال أم درمان



ويبنى فى حوش الرجال عند الباب غرفة لجلوس العبيد والخدم تسمى بالدهليز البرانى ، وفى صدر الحوش يبنى ديواناً لجلوسه مع زائريه له دكة من طين يفرشها بالبرش والسجاد ، وعن جانب الديوان غرفة يضع فيها بضاعة إن كان تاجراً ، ويجعل أمام الديوان « راكوبة » لجلوسه مع زائريه ، ومن داخل منازل للضوف ، وبيت خلاء ، وعلى دائره من الخارج غرفة لعبيده ، وقد يبنى صفاً من الغرف بقرب المنزل فيجعلها خلوة للضيوف ، وهذا غاية ما يبلغه منزل الحضرى العربى فى قرى السودان .

هذا بشأن المنازل المربعة والسقوف المبنية من طوب أو من حجر أو طين وكلها على النيل الكبير ، أما أهل النيل الأعلى ومعظمهم أهل السودان الشرقى والغربى فان أكثر منازلهم أكواخ مخروطية الشكل كأكواخ السود لأنها أمتن وأقدر على تحمل المطر الذى يكثر وقوعه فى بلادهم ، وهم يصنعونها من اليبيس والطين ، فمنها ما دائره من طين وقبته من يبيس وهو الدُّرْدُر ، ومنها ما دائره من يبيس وقبته من يبيس أيضاً ، ومنها ما يستخدم للطبخ فقط .

ومن أكواخهم مايسمى ظهر الثور أو الكرنك يبنونه من اليبيس والبروش على شبه ظهر الثور أوالقبوة ومنها مايسمى الراكوبة وهى بناء مربع يستطيل من اليبيس والحطب له سقف مسطح وثلاثة حيطان (١)



(١) هذا فى القرى أما المدن كالخرطوم وأم درمان والأبيض وغيرها فبيوتها كبيوتنا فى مصر تتفاوت فى الكبر والضخامة .

أثاثهم

(العنكريبات ـــ العنجريبات) ومفردها عنكريب أو عنجريب وهى أسرّة من خشب مشدودة قوائمها الأربع بسيور من جلد البقر أو بحبال من سعف النخل أو الدوم ، تفرش بالسجاد أو البروش ، وتستعمل للجلوس والنوم وقد تصنع كلها من نسيج الخوص لاتقاء البعوض وغيرها من الحشرات .

(البنابر) ومفردها بنبر وهى كراسى صغيرة واطئة تشبه الكراسى المستعملة فى بعض القهوات البلدية فى مصر

(الكراسى) وهى بناء بمسندين لليدين ومسند للظهر على نحو الكراسى الأفرنجية تصنع من خشب الصنت فى الغالب (الككر) وهو الكرسى الذى يجلس عليه ملوكهم أخذوه عن السود ، وهو عبارة عن قطعة من جذع شجرة متينة الخشب ، محفورة من أعلى ومن أسفل

بحيث يكون لها مسندان لليدين من أعلى وقاعدتان من أسفل .

(الأجربة) من جلود الماعز والضأن والأبقار والغزلان تحفظ فيها الحبوب ، ولا سيما فى الأسفار ، ويعرف الجراب الصغير بالقفل ويستعمل للثياب والدراهم

(القرب) من جلود الماعز تستعمل لنقل الماء كما كانت تستعمل فى مصر من أعوام ، وقد تصنع من جلود البقر وتعرف بالسقا أو الراوية ، أما القربة الصغيرة فتعرف بالسعن .

(الرحاية) وهى رحى اليد ولكنها قلما تستعمل فى غير بلاد دنقله .

(المرحاكة) وهى آلة للطحن خاصة بالسودان وهى حجر أسود مسطح طوله نحو ذراع وعرضه نصف ذلك، ومعه حجران بيضويا الشكل ، يقال للواحد الجراش وللآخر الرداد ، طول الواحد منهما نحو شبر ، أما الرداد فتحته بثخن الساعد والجراش أثخن منه قليلا ، وأما كيفية الطحن فهى أن يوضع الحجر الكبير على سطح مائل ، وفى أسفله قدح فتركع الجارية عند طرفه الأعلى وعلى

يمينها الحب المراد طحنه ، وفى يدها الجراش فتأخذ من الحب شيئاً فشيئاً وتلقيه على الحجر الكبير ، وتسحقه بالجراش صعداً ونزلا فيسقط فى القدح دقيق فتبله بالماء وتعود فتطحنه بالرداد إلى أن ينعم جداً فتجعله على النار حتى يصبح عصيدة .

(الدوكة) وهى آلة للخبز شبه الصاج تصنع من حجر الهمر الكثير الوجود فى السودان وهو حجر هش يسحقونه دقيقاً ثم يعجنونه بالماء ويجعلون منه أقراصاً مستديرة شبه الصاج ويتركونه حتى يجف ثم يجعلون فى كل قرص قطعة من الدهن ويضعونه على النار نحو ساعة حتى يتشرب الدهن كله ثم يتركونه يبرد ثم يعيدون ذلك ثلاث مرات فيمتن الحجر ويملس ويصبح صالحاً للخبز فيخبز عليه كما يخبز على الصاج عندنا .

(الأقداح) الخشبية منها وهى آنية للطعام والعجن ونحوهما .

(المكبات) وهى أغطية الأقداح تصنع من سوق القمح على شكل مخروطى ، وتلون وتزين بالجلود المدبوغة

(الأطباق) تصنع من سعف الدوم ويوضع عليها الخبز وألوان الأطعمة .

(البروش) تصنع من سعف النخل والدوم وتستعمل بدلا من الحصر عندنا .

(الفندق) وهو هاون كبير من خشب بيد من خشب أيضاً تدق به الحبوب لاخراج نخالتها .

(الجبنة) وهي أبريق من فخار تغلى بها القهوة والشرعرع وهو فنجان مربع من خشب يرافق الجبنة له يد يمسك بها وفم تصب منه القهوة ، أما قهوة الجبنة فتصنع هكذا : يحمص البن بتحريكه فى قدح مع الجمر ويدق فى هاون الى أن ينعم ، وفى أثناء ذلك يغلى الماء فى الجبنة فيوضع البن فيها الى أن يفور ويسكب فى الشرعرع ثم يعاد اليها ويوضع على النار مع قليل من الماء حتى يفور ثانياً وهكذا على ثلاث مرات فتسكب فى فناجين كبيرة تعرف بالبيشة وهى من ألذ أنواع القهوة .

(الكبيات والفناجين) من قرن الخرتيت وهم يزعمون أن الفنجان المصنوع منه كاشف للسم ، فاذا سكبت القهوة فيه طفا السم على وجهه .

(القرع اليابس) تقطع القرعة فلقتين بعد قطع عنقها فتجعل كل فلقة منها إناء للشرب أو تترك على حالها وتثقب عنقها من أعلاه فتستعمل آنية للسمن أو اللبن .

(البرم) مفردها برمة وتشبه البلاص المصرى إلا أن فمها واسع .

(الكنتوش) أو دوكة الملاحة وهو قدر من فخار للطبخ وهم يستعملون فى طبخهم القدور النحاسية أيضاً التى تستعمل فى مصر.

(الجر) وهو الزير ومنه نوع كبير تخزن فيه الذرة (غلايين الدخان) وقد تكون كلها من حجر أو تصنع رءوسها من حجر وعيدانها من فروع بعض الشجر

(السروج) أى سروج الخيل والحمير وهى تختلف قليلا عن السروج المصرية ، أما سروج الحمير فلكل منها قربوسان عريضان أو مسندان فى شكل واحد يوضع على وسادة من يبيس النال مما يلى ظهر الدابة

طعامهم

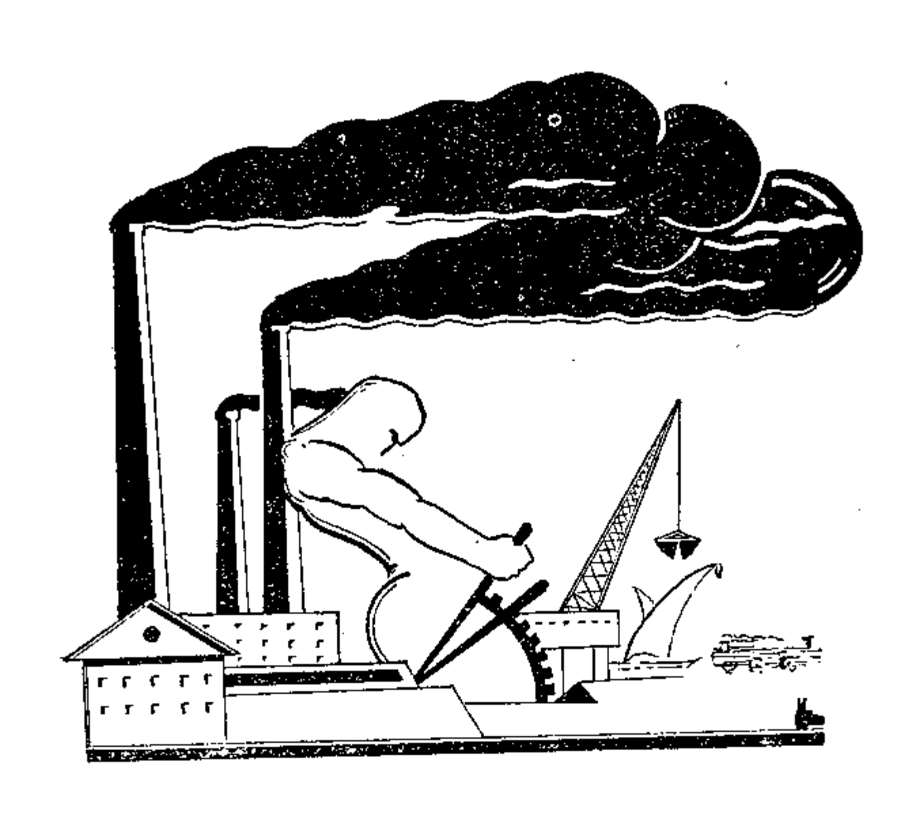
أكثره الذرة والدخن وأقله القمح ، وأكثر أكلهم من الخضر ينحصر فى الباميا والملوخية والويكة واللوبيا والبصل، وطعامهم فى اللحوم ولحم الضأن قليل .

وأشهر بهاراتهم وأشهاها اليهم « الشطة » وهى قرون صغيرة حمراء تشبه قرون الفلفل الأحمر فى اللون والطعم وتزرع فى كل جهات السودان .

ووجبات الأكل عندهم ثلاث : الفطور يتناولونه عند شروق الشمس ؛ والغداء فى الضحى الأعلى إلى الظهر ؛ والعشاء عندالغروب ، وأهم مايتناولونه فى الفطور العصيدة أو اللقمة عليها اللبن حليباً أو رائباً ، أو السمن والعسل أو السمن والسكر ، أو الشعرية مطبوخة بالحليب ، أو بالسمن والسكر ، ومنهم من لا يتناول الصبح إلا طعاماً لم يمسسه النار كالبلح والحليب ، ومن أقوالهم « من فطر

طعاماً بلا نار كفاه الله شر ذاك النهار » على أن غالبهم لا يعتنى بأكل الصبح بل يأكل فى الضحى الأعلى ثم الغروب ؛ وأهم ما يتناولونه فى الغداء العصيدة أو اللقمة أو الكسرة أو القراصة وعليها الأدام وفى العشاء الكسرة مع الأدام.

وهم يقدحون النار بحك خشبة على خشبة أخرى أو بضرب قطعة من الفولاذ على حجر أو بضرب حجرين معا ويتلقونها فى الأحوال الثلاث بقطعة من الصوفان أو لب الخوص أو خرقة ملوثة بالرماد أو البارود.



شرابهم

يشربون ماء النيل والآبار المنثورة هنا وهناك ، ويشربون الشاى والقهوة وأفضلها قهوة الجبنة وهى ألذ وأطعم قهوة يعرفها السودانيون .

وهم يدخنون أيضاً بغلايين طويلة أو قصيرة أو يمضغون الدخان مضغاً بعد أن يضيفوا إليه قليلا من النطرون وهذا معروف عندهم «السفّة» ويسحقون ورق الدخان ويضيفون إليه شيئاً من النطرون أو الجردقه ، ويستعملونه نشوقاً .

وهم كأغلب المواطنين من العامة فى السودان مغرمون بتعاطى الخمر وشربها إلا أن كثيراً منهم يمتنع عن شربها تدينا ، وهى تستخرج من البلح والذرة والدخنة ، وتخمر بوساطة الزرّاع ، والزراع هو الذرة تنشر على برش فى الشمس وترش بالماء حتى يعلو نباتها عن الأرض نحو

شبر فيمنع عنه الماء إلى أن يجف فيطحنونه بالمرحاكة ، ويدخلونه فى جميع المشروبات التى أشهرها أم بلبل . والمريسة أو البوظة ، والأبرية .

أما أم بلبل فهى عصيدة مائعة من دقيق الزراع وأما البوظة أو المريسة فهى عصيدة من الذرة يضاف إليها شىء من الزراع ، وتوضع فى زير نحو يومين حتى تخمر ، وهى أشهر مشروباتهم وأشهاها إليهم ، وتعرف فى بربر ودنقلة بالبوظة ، وفى بلاد النيل الأزرق بالمريسة ، وأهم الأطعمة التى تؤكل مع البوظة الكبد وما اليها .

أما الأبرية فهى خبز رقيق من دقيق الذرة يبل بالماء أو بمذوب السكر ، وهو شراب لطيف مبرد يساعد على احتمال الجو الحار فى بعض مناطق السودان ، وكيفية عمله أن يذاب جزء من دقيق الذرة المنخول فى جزءين من الماء ويضاف إلى المزيج قليل من الكمون والزراع ويترك يوما كاملا إلى أن يختمر فيخبز رقاقا على الدوكة ، ويفتت ويخزن لوقت الحاجة ، وأكثر استعماله فى زمن الحر وفى الأسفار .

ومن أهم المشروبات المستخرجة من البلح : العرق (العرقى) يستخرجونه بالأنبيق كما يستخرج العرق من العنب فى بلادنا وهو على كل حال أصلح مما يباع فى مصر مخلوطاً بمواد تسىء إلى الصحة والبدن.

ثم إن الخاصة من أهل السودان يستخرجون مشروباً لطيفاً من الرز يسمونه شراب «السوبية» وذلك بأن يغلى دقيق الرز أو القمح ، ويمزج بمنقوع التمر هندى على نسبة معينة ، ثم يصفى ويذاب فيه السكر أوعسل النحل ، ويحفظ فى آنية من فخار ، وهو شراب مبرد إلى الغاية .

ولعرب السودان صبر عجيب على الجوع والعطش فقد يسير العربى منهم مسافة يوم فى الصحراء على حفنة من الذرة وجرعة من الماء ، وإذا لم يجد طعاما شد حزامه على وسطه واحتمل الجوع بصبر غريب مهاطال به السغب

وللسودانيين جميعاً شهرة عظيمة فى اعتنائهم بأسنانهم رجالا ونساء يحملون فى جيوبهم عيدانا من الأراك أو اللوث أو جريد النخل (مساويك) للاستياك بها وذلك من أفضل خصالهم التى تدل على نظافتهم

حيوانهم

تمتاز بلاد السودان بكثرة حيواناتها من برية وأليفة وتكاد هذه الحيوانات بنوعيها تجمع ألوان الحيوان جميعاً فالسودان فى الواقع يمتاز بهذه الميزة التى لا يكاد ينازعه فيها بلد من البلاد .

وأهم حيوانات السودان البرية هى :

« الأسد » ويسمونه الدابى أودود الخلا، ويصطادونه صغيراً ويربونه ، أو يصطادونه كبيراً فيجعله ملوكهم على أبواب منازلهم ليزيدوها مهابة ووقاراً

« الفيل » وهم يصطادونه من أجل سنه وجلده فيدخلون سنه فى التجارة ويصنعون منه أساور ومكاحل وأغطية لبعض الحلى وكراسى للوسائد الخشبية مقابض للمزاوح والعصى ، ويعملون من جلده الدرق ، ولكنهم لا يستأنسونه كما هى الحال فى الهند، وقد قدر أن الفيل لن

يوجد بعد مائة وخمسين عاماً « وحيد القرن » وهو الكركدن ويسمونه العنزة أم قرن ويصطادونه لأجل قرنه المعروف بالخرتيت فيصنعون منه كاسات وفناجين وأيدى السكاكين .

« الزرافة » وهم يصنعون من جلدها درقاً ، ومن ذيلها منشات ، ويلذ لهم لحمها ويقددونه كما يقددون لحم البقر

الجاموس البرى وبقر الوحش معروفان ، وهم يصطادونهما ويصنعون من جلدهما الدرق

« حمار الوحش » ويسمونه حمار الخلا وحمار الوادى وأكثره يوجد فى الصحراء الشرقية ، وهم يصطادونه ويستأنسونه .

وهناك إلى هذه الحيوانات كثير غيرها كالضبع والذئب والخنزير البرى ، وهو الزباد والتيتل والغزال والقردة وما إليها .

وهم يصطادون الكواسر بالبنادق والحيل والشراك وأبسط شراكهم حفرة يحفرونها فى طريق الكواسر على عمق خمسة أمتار أو أكثر ، ويغرزون فى بطنها أوتاداً

متينة محددة الرءوس ، ويسقفونها بالعيدان والبروش أو الحصر ثم يحثون فوقهاالتراب ، ويجعلونها كالأرض تماماً حتى لا يفطن اليها الحيوان ، فاذا مر الكاسر بالشرك وقع فيه ولم يستطع إلى النجاة سبيلا .

ومن شراكهم شراك الماعز ، وذلك أنهم يربطون ماعزاً إلى وتد ، ويحفرون حوله خندقا مستديراً بحيث يبقى الماعز قائماً على اسطوانة من الأرض حول الخندق ثم يوارون الخندق بالعيدان والتراب على نحو ما تقدم وصفه ، فاذا أقبل الكاسر لافتراس الماعز سقط فى الشرك من حيث لا يدرى .

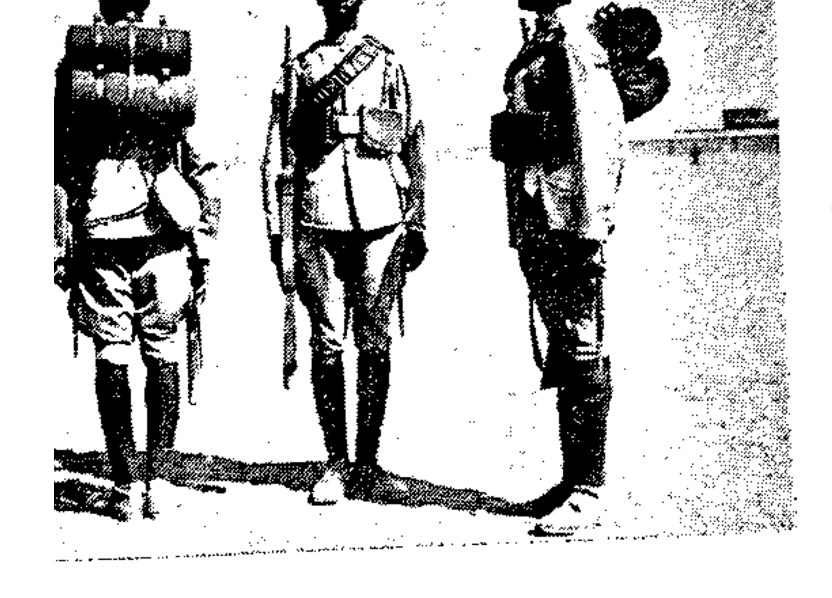
أما حيواناتهم الأليفة فهى معروفة عندنا فى أغلبها كالأبل والخيل ، والحمير والبغال ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، والكلاب والهررة .

أما الأبل فهم يؤجرونها ويستعملونها فى كل جهات السودان ، ويعيشون فى بعض الأحيان على ألبانها كما ينتفعون بجلودها ويصنعون بعض خيامهم من أوبارها ، ومن أشهر أبلهم للحمل أبل الهدندوة فأنها أصبر على الجوع والعطش ، أما الهجين فأشهرها أبل البشاربه

والخيل فى السودان ثلاثة أعزها الدنقلاوية (نسبة إلى دنقلة) وهى رشيقة القد طويلة الشعر ممشوقة القوام سريعة الجرى، جميلة الرأس إلا أنها قبيحة الكفل !

ومن طيورهم النسر والعقاب والصقر والحدأة والرخم والقطا ، والحمل والدجاج البر ؛ والحبارى) وهى فى شكلها وطعم لحمها أشبه بالنعام ، وكل هذه الطيور برية ، كما يكثر عندهم البلبل والهزار والكروان وغيرها من الطيور الجميلة حسنة الصوت .





جنود السودان
فى الجيش المصرى



الجمال
بين السودانيات



امرأتان تطحنان
« الأذرة »
استعداداً لعمل
الخبز «الكسرى»



مدنهم

أعطيتك فى الفصول السابقة لمحات خاطفات عن حياة العامة فى السودان ، فى طباعهم وأخلاقهم ، وأخذهم الحياة وفهمهم لها ، ويخيل إلىّ أن الحديث فى هـــذه الموضوعات قد أعطاك صورة فيها من تواضع الحياة شىء كثير ؛ بيد أنى لا أريد أن يكون هذا التقدير هو وحده مقياس حضارتهم .

فهناك إلى هـذه القرى الكثيرة المنثورة فى كل مديرية تقوم مدن عظيمة خالدة ، فيها من الحياة الحديثة ما فى القاهرة والاسكندرية وطنطا ، فالخرطوم حاضرة السودان جميعاً ، لا تمتاز عليهـا القاهرة فى شىء أللهم فى آثارها القديمة واتساع مساحتها ، ففى الخرطوم اليوم مبان حديثة رائعة وإن لم تبلغ مبانى القاهرة فى حجمها إلا أنها لا تقل عنها فخامة . وفى الخرطوم ترام وسيارات

عامة وخاصة ، وفيها النور الكهربائى فى كل بيت تقريباً
وفى كل شارع

وتمتاز الخرطوم عن القاهرة مثلا فى أن تشييدها
قائم على قواعد صالحة فهناك كثير من الميادين الواسعة
والحدائق المنتثرة فى كل جهة ، وشوارعها متسعة جداً ،
أقيم على جوانبها الأشجار الباسقة التى تقيك الهجير
وحرارة الشمس ؛ وفى الخرطوم إلى هذا مدارس بعضها
يتبع نظم الدراسة فى مصر كما فيها مستشفيات ودور
كثيرة للسينما ، وحوانيت فيها كل ما يحتاج إليه الناس ،
وكل ما تشتهى له النفس

ومن العبث أن أحاول وصف خرطوم اليوم فهى
مدينة عامرة يرتاح إليها القاهرى والباريسى على السواء ،
وعلى غرارها شيدت خرطوم بحرى وأم درمان ، وغير
هذه المدن الثلاث قامت الحواضر هنا وهناك تجمع
أسباب الراحة والطمأنينة ، وتعطيك صورة رائعة عن
السودان فى عصره الحديث

لكى أصور لك هذه الحقيقة يجب أن أردك إلى
مدننا المصرية ، فطنطا والمنيا والاسكندرية والقاهرة :

هذه المدن كلها قد قام على تشييدها وإصلاحها المصريون كذلك قام المصريون بتنظيم مدن السودان وتعميرها ، فالذوق المصرى وحده هو الذى جعل فى السودان بلاداً تباهى حواضرنا وتنافسها فى المدنية والعمران

فأنت لا تستطيع أن تنكر على سواكن والأبيض والفاشر هذا التجديد الملحوظ فى بناء المساكن ، ولا هذا العمران المشاهد فى كل شارع وميدان ، ولا هذه الحركة التى تدل دلالة وَاضحة على الحياة العامرة فى تلك المدن ، الحافلة بألوان المدنية وأشكالها المتباينة على غرار الغرب فى كثير من الأحيان .

فلتكن هذه الحقيقة الصادقة نصب عيوننا فهى تؤكد فى غير قصد ولا التواء أن المدنية السودانية لا تختلف فى صميمها عن المدنية المصرية ، وتشبهها وتجرى على آثارها فى كل ميدان

خاتمة فى كلمات

من خطبة عزيز عزت باشا
بمنشستر فى ٤ يونيه ١٩٢٤

إنكم لتعلمون جميعاً أهمية العمود الفقرى لكيان الانسان ، هذا العمود مقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم العنق . القسم الظهرى . القسم القطنى ؛ فلو انكم تنزعون قسما من هذه الأقسام من أحد الناس أو جزءاً من قسم لأعجزتموه مدى الحياة ، ومصر بالمثل يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : السودان . النوبة . الوجه البحرى ، فأذا تدخلتم بالقوة فى جزء من هذه الأجزاء أصبحنا عاجزين ، أما إذا انتزعتم أو بترتم جزءاً حيوياً كالسودان فقدنا الحياة .

لرجال الدول السياسية أن يحددوا الحدود ويلونوا الخرائط ويلعبوا بالألفاظ كما تصور لهم أهواؤهم وخيالهم ولكن الطبيعة ليست طوع بنانهم ، الطبيعة تعرف كيف تثبت وجودها وتؤيد أحكامها .

فى ١٨٨١ كان البرلمان المصرى يضم عشرين عضواً يمثلون السودان

قال اللورد سالزبرى فى ١٨٩٨ « إن وادى النيل ملك مصر وسيبقى دائماً ملكا لها » .

وقال لورد روزبرى « مصر هى النيل والنيل هو مصر »

قال هيرودوت « مصر هبة النيل . . . . نزل وحى فى هيكل آمون المقدس يقول إن مصر تشمل كل أرض يجرى فيها ماء النيل أو يرويها ، والمصريون هم الأمة التى تشرب ماء النيل »

فى سنة ١٨٩٨ نشر لورد روزبرى فى الكتاب الأزرق الذى أصدره بشأن فاشوده ، خطاباً من بطرس باشا غالى وزير الخارجية ، وفيه يقول « إن حكومة سمو الخديوى كما تعلمون يا جناب اللورد لم تغفل طرفة عين عن مسألة استرجاع الممتلكات السودانية التى تعتبر منبع الحياة لمصر والتى لم تغادرها الجيوش المصرية إلا بحكم قوة قاهرة ، فاسترجاع الخرطوم لا يكون

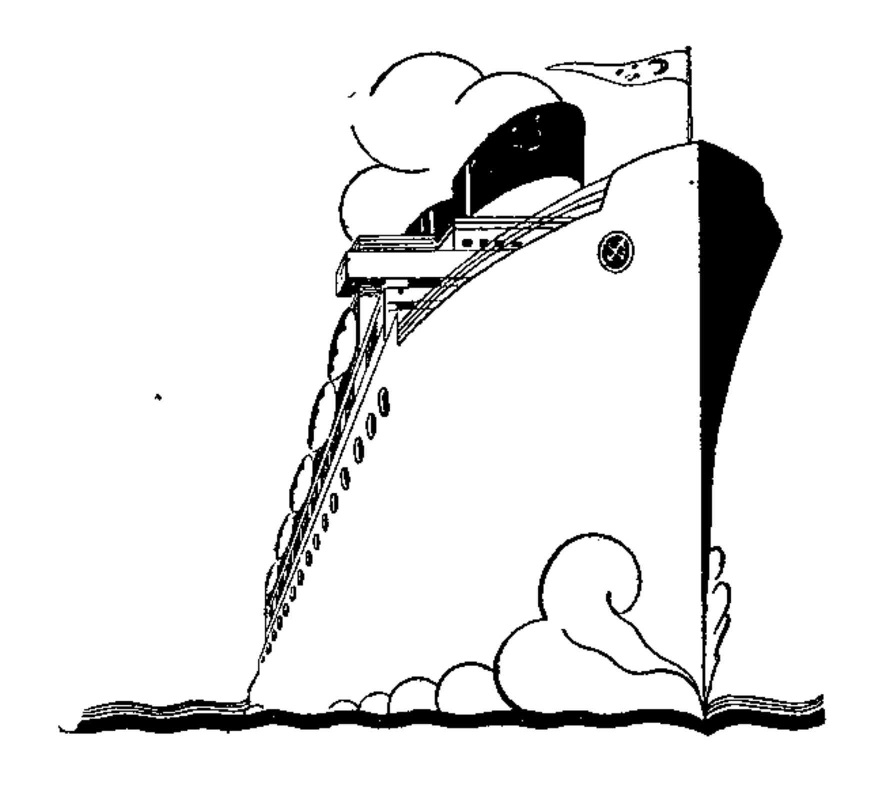
ذا فائدة إذا لم يرد إلى مصر وادى النيل الذى من أجله ضحت مصر فى الماضى كثيراً من التضحيات ، ولقد كلفتنى حكومتى ، لما علمت بالمفاوضات الجارية بين فرنسا وبريطانيا العظمى بشأن فاشوده ، أن أطلب من فخامتكم التوسط لنا عند لورد سالسبورى للاعتراف بحقوق مصر الثابتة ولاسترداد جميع المقاطعات التى كانت مصر تحتلها لغاية ثورة المهدى »

« لا ينكر أحد أن النيل روح مصر فالمسألة واضحة ظاهرة ، والنيل عبارة عن السودان ولا يشك أحد أن الروابط التى تربط مصر بالسودان هى كالروابط التى تربط الروح بالجسد هى روابط لا يمكن فصمها ، فأذا تملكت دولة من الدول شواطىء النيل قضى على مصر قضاءاً مبرماً ، لذلك يصبح معلوماً أن حكومة سمو الخديوى لا يمكن أبداً أن توافق على هدم كيانها بمحض اختيارها الخ »(١)

---

(١) من مذكرة رياض باشا ناظر النظار فى ٩ ديسمبر ١٨٨٤ الى السير افلن بيرنج Sir Evlyn Baring

قال اللورد كتشنر وكان إذ ذاك سـيـر هربرت كتشنر فى بلاغ له أنه « إنما يدخل السودان لتخليص الناس مما هم فيه من الظلم والاضطراب ، وليساعد الموالين المخلصين من الأهالى ، وليستعيد البلاد لمليكها الشرعى خديوى مصر »



تم طبع كتاب « فى السودان »
بمطبعة مجلى (لصاحبها احمد الصاوى محمد)
بشارع الداخلية بالقاهرة تليفون ٥٥٤٥٥
فى يوم السبت ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦